الديوك الرومية لا تطير

مجموعة قصصية

محمد إبراهيم قشقوش

الكتاب: الديوك الرومية لا تطير (مجموعة قصصية)
المؤلف: محمد إبراهيم قشقوش
الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠٠٨
رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٨٨٠٥
الترقيم الدولي:
I.S.P.N: 987 – 977 – 6284 – 20–3

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى – المقطم – القاهرة
ت/ فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢) ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
Web: www.shams-group.net

الغلاف: الفنان أمين الصيرفي

الديوك الرومية لا تطير

المجموعة القصصية الحائزة على جائزة سعاد الصباح ١٩٩٩، المركز الثاني

إهداء

أرض صحراوية لا يمر من فوقها سوى رياح خماسينية، فجأة في ليلة شتوية من ليالي ٢٠٠٧ ضلت نسمة ربيعية جميلة طريقها فعبرت من فوق الصحراء، اختلطت بالجو الساخن، صنعت سحابة داكنة، تساقطت أمطاراً غزيرة، أنبتت نبتة جميلة ليس لها مثيل على ظهر البسيطة، أخرجت أزهاراً وثماراً لذيذة لا توجد إلا في الجنة، وبذوراً تطايرت هنا وهناك أصابت الصحراء ببقعة خضراء تفشت حتى اختفت رمالها .

تلك الأرض الجرداء لم تكن إلا أنا، وللنبتة الجميلة التي أضاءت حياتي أهدي تلك المجموعة القصصية.

محمد إبراهيم قشقوش



الديوك الرومية لا تطير

هالات ضوئية كسلاسل حلزونية حلّقت أمام السيارة، سالكة نفس الطريق الذي اجتازته، تزداد إضاءة كلما تقدمت السيارة على تلك الأرض، ما لبثت أن اختفت مخلّفة وراءها بريقًا قديمًا سقط فى عقلي محدثًا رنينًا فى الذاكرة... الدار الفلاَّحي القديم، لبناته الطينية التي نشأت من مزيج بمقادير من طين وتبن.. أقراص من السِّماد البلدي تعلوها على هيئة دوائر متراصَّة فى انتظار أن تصبح وقودًا، الترعة المرتمية أمام الدار وعلى امتداد القرية، أشياء لم أرها منذ ما يقرب من تسعة عشر عامًا، بدت ذات لون أخضر ذابل من وراء نظارتي الخضراء باهظة الثمن التي تخفي وجهي...

عندما نزلت من السيارة متجهًا نحوها كانت خطواتي متطابقة مع بعضها كأنها صبّت فى قوالب أسمنتية جفت منذ زمن بعيد... الحيز الضيق داخل البدلة المحبوكة بإحكام على جسدي لم يسمح بغير ذلك... واجهة الدار بدت أصغر حجمًا من ذي قبل، وحبل دوبارة تدلَّت عقدته من ثقب فى الباب جذبته فانفتح.. كغابة خلت من حيواناتها الأسطورية شديدة العتمة ترجع لعصر ما قبل التاريخ كان جوف الدار.. فرقعة الباب الشديدة أنبأت بصدأ مفصلاته.. عندما كان الباب يفتح ويقفل كل آونة مستقبلاً ضيوفًا وجيرانًا وأطفالاً لم يكن يتفوَّه بمثل ذلك الأنين.. الضوء المغربي الخجل المنكفئ من الخارج عكس أطلالاً متناثرة فى باحة الدار الرطبة.. ويدي الممتدة لتفتح شباكًا خشبيًا صغيرًا كما لو كانت تمتد لهوة فى زمن

فائت.. خيوط فضية انسكبت من بين قضبانه الحديدية.. لم أفلح أبدًا فى الوصول إليه عندما كنت صغيرًا..

نفس الوجود الدنيوي لأشياء رحل أصحابها إلى العالم الآخر تاركين وراءهم مخلفاتهم الرخيصة، الأرضية الترابية، الجدران الجيرية الزرقاء المتآكلة، العروق الخشبية تحمل بعناء سقف الدار، محتويات لم تتحلل أو تتعفن كتعفن الموتى، كما لو كانت خالدة لإنسان غير خالد.. طبالي خشبية، ماكينة حياكة منزوية فى صمت بإحدى الزوايا، كنب بلدي يتكئ فى شجن على الجدران وزير الماء المثقوب.. عندما رفعتُ غطاءه ظننت أنني سأجد بداخله ماءً.. منذ عمر مضى كنت أعتقد أنه يولّد الماء كالصنبور، جرأتي لم تصل إلى أن تمتد يدي داخله لأشرب.. علي بن خالتي أم نجوانة جارة جدتي – ذلك الولد القذر الذي لم يكن يخجل أن يلعب الكرة والغُميضة وكهرب بملابسه الداخلية المنقّرة بثقوب عينية كفتحات استطلاعية بجدار حصن منيع – ما زلت أتذكر كلامه (إن فى جوف الزير كهفًا مظلمًا تسكنه أفاعي وسحالي وصراصير متوحشة بذيئة)، عندما كانت جدتي تناولني الماء لأشرب كنت أحدق فى الماء.. أحاول التأكد من خلوه من تلك الكائنات التي يتحدث عنها.

بعد أن طالت ساقيَّ قليلاً استطعت أن أضع كرسي الحمام الخشبي الصغير وأقف عليه لأصل لحافة الزير الموضوع على الحامل الحديدي وأكتشف كذبه وأفهم لعبته؛ الضحك على طفل قاهري مدلل جاء لقضاء أجازته الصيفية فى قرية جدته الريفية.. عندما واجهتُه بكذبته اندفع فى الضحك والقهقهة حتى سقط على الأرض.. ضحكاته المدوّية ما زالت عالقة بإذني.

***

(تأخر الرجل)... هذا ما قلته لنفسي عندما نظرت فى الساعة على بقايا ضوء لامع يبرز نفسه على استحياء كامرأة خجلة تخفي فمها وراء ملاءة.. فرصة كوني بمصر لثلاثة أسابيع كاملة أتاحت لي الوقت لتصفية كل شيء قبل العودة إلى الخارج لسنوات قادمة، وكان مما يدور فى عقلي بيع دارنا القديمة التي صارت مهجورة.. جدرانها أصبحت تمتلئ بأحداث سالفة سقطت فى التاريخ.. دائمًا ما كنت أكره التاريخ.. أعتبره مضيعة للوقت.. أقول لا وقت للتذكر والبكاء، اليوم وقت العمل..

سيل من موجات كهربية تدفقت أمام عيني أصابتني بصدمة أسفل مركز الذاكرة اقشعر لها جسدي، انتفضت منها صور عالقة من آخر يوم كنت هنا.. الوقت عصرًا فى يوم من أيام رمضان.. أجري بباحة الدار مع ثلاثة أطفال فى حلقات معوجة كأننا بفناء مدرسة أو ملعب، لا أكاد أذكر منهم إلا عليّ ومسحات من وجوههم النحيفة، أصواتنا تتردد بالغناء على وتيرة واحدة.

يا فاطر رمضان يا خاسر دينك.
كلبتنا السودة هتقطّع مصارينك.
يا صايم رمضان يا موحَد ربك.
كلبتنا البيضة هتبوسك من خدّك.

تجذبنا كلماتها المتوافقة لإعادة تكرارها كل قليل.. عندما رددنا تلك الأغنية صباح ذلك اليوم أمام قهوة بأول القرية اندفع رجل يجري وراءنا بعصاه.. لم نشعر إلا وأرجلنا تطير من فوق الأرض كأن أجنحةً قد نبتت لها، ولم ندر لماذا جرى ذلك الرجل وراءنا؟..

حُبيبات ذهبية انتثرت فجأة من عقلي وسرعان ما اختفت كأطياف الذاكرة، لم يتبقَّ منها إلا خيوط من ضوء فضية باهتة مميزة لوقت الغروب... حجرة الخبيز ما زالت كما هي يمين الردهة المؤدية لحجرتي.. الفرن البلدي وأكوام القش وأقراص السماد مكوّمة فى ركن الحجرة والماجور والبشكور وطبلية كبيرة وكل أدوات الخبز.. ما زالت تلك محتوياتها.. صراصير الليل تناغي السكون والظلمة المحلقة بأجوائها..

فى نفس ذلك اليوم عندما كنت ألعب بساحة الدار أطللت على تلك الحجرة التي كان ينبعث منها الدخان؛ يتحرك كأسراب نحل متتابعة.. النساء العجائز الملتفات حول الفرن – وطبلية وماكينة سحرية يدخلها العجين من أحد جوانبها ويفارقها أصابعًا رفيعة من الجانب الآخر – لفتَ نظري بتلك الدوائر اللحمية حول أفواههن وتحت أعينهن، وصوت العجين يضرب فى الماجور أعطاني شعورًا أنهن عاكفات على صنع شيء من نوع خاص ليس له مثيل لم يُفصحن عنه بعد... أعينهن المصوبة نحو خالتي أم شبل – التي قرصت على قطعة من العجين تتفحصها بيدها – كأنها قد تحجرت... صوتها يعلن فى ثقة (يحتاج كبشتين دقيق) وقتها سقطت عيني على كومة من البسكويت فقد مقدرته على أن يظل فى رشاقة إصبع اليد؛ فصار كوجه السمكة الممسوخ، ذلك جعلني أدرك أنّ ذلك البسكويت – الذي كان فى يد عليّ منذ قليل يقلبه بين كفيه ويرميه لأعلى نافخًا فيه ويأبى أن يعطيني منه كِسرة – كان يخصّنا، لذلك لم أجد حرجًا أن أمدَّ يدي وأكبش أربعة أصابع من بسكويتنا المفرطح، ولكنني للأسف لم أكن أقلّبه... فقد سرت فيه البرودة ويبس حتى صار كقوالب الطوب الأسمنتي الصغير.

لم يستطع حذائي الجديد ذو الجلد اللمّيع أن يعلو بصوته على صوت مفصلات باب حجرتي الموجودة بآخر الدار، وعود الكبريت الذي أشعلته كسا الغرفة بغلالة ذهبية متموجة تخايلت على أركانها فبدت كما تركتها.. الدولاب المخلوع دلفه.. الكرسي الخشبي مهشم الأرجل المكوم كجثة جدتي الهامدة فى ركن الغرفة القصي، السرير ذو القضبان النحاسية الذي فقد بريقه منذ فقد الحياة عليه.. عندما انطفأ الثقاب اعتلى الظلام عرشه مرة أخرى،لم يكن الظلام يخص الدار وحدها كما ظننت،أدركت هذا عندما فتحت النافذة فتجلى سواده الحالك.

داخل الحجرة عندما انتفضت فى الظلمة ملاءة السرير البالية لم يستطع ترابها الرمادي أن يظهر فى أجوائها، اللون الأسود يسود، فقط رائحة عطنة كعبق الموت... نسمات لطيفة هبّت متسلّلة من الحقول بين أعواد البرسيم وسنابل القمح.. وخدر لذيذ أصابني على مرأى مقام سيدي لطيف من بين قضبان النافذة الحديدية.. دفعني ذلك لأستلقي مسترخيًا على السرير متجاهلاً شظى الغبار المتطاير.

صوت جدتي ما زال يتردد من حولي كأنه يخرج من صندوق معدني أُحكم إغلاقه.. نفس الحديث الذي دار بيننا.

- يجب أن تنام الآن.. صرنا فى الثانية صباحًا.
- قبلاً كلّميني عن سيدي لطيف والديك الرومي.
- أي ديك رومي؟

كانت تسأل فى خُبث، وقد اعتلت وجهها تلك الابتسامة التي تصنع دوائر لحمية كقطع البصل الحلقية.. بدت متشابهة مع هؤلاء النساء العجائز اللاتي كن مجتمعات معها ذلك اليوم فى حجرة الخبيز، فظهر

كأن وجوههن متطابقة.. أجبتها متخابثًا أنا الآخر:

- ذلك الذي كنتن تتحدثن عنه اليوم أمام الفرن وسمعتكن تذكرونه قبل ذلك.
- وترد: نم الليلة وأعدك أن أحكيَ لك فى الصباح.

كنت أعلم أنها تقول ذلك لكي أنام وينتهي الأمر وتريح رأسها، لذلك أصررت على طلبي.. قلت لها بتحدٍّ:

- بل تحكيها الليلة وإلا سأبقى ساهرًا ألعب حتى الصباح.

نظراتها الصامتة دلّت على يأسها مني وعدم القدرة على مناكفتي، ولكنها ما لبثت أن زفرت بتنهيدة طويلة خرجت من فتحات أنفها، وبدأت تقصّ حكاية عمتي التي كادت أن تموت وهي صغيرة لم تكمل الثالثة، حتى يئس من حالتها الأطباء.. كانت وهي تحكي متأثرة لدرجة بالغة كأنما تعيش ما حدث من جديد، ثم سكتت فجأة كأنما نسيت شيئًا، وأكملت صارخة (كانت تنام على هذا السرير) وعادت لسرد قصتها، قالت إنّ روح سيدي لطيف تجسدت على هيئة ديك رومي ضخم الجسم كثيف الريش لامعهُ - وأشارت للنافذة التي تعلو السرير - قاطعتها صائحًا (إنها بقضبان حديدية ضيقة).

بدا أنّ مقاطعتي لها قد ضايقتها.. قطعت سيل أفكارها المتتابعة.. قالت بفتور (فيما بعد.. لقد وضعناها فيما بعد).. واصلت حكيها كأنني لم أقل شيئًا.. قالت لقد دخل من هذه النافذة، ووقف على نفس السرير الذي نجلس عليه يتأملها فترة وهي نائمة، ثم مسح بأحد جناحيه عليها وعاد وقفز من النافذة) بعد أن ذكرت ذلك سكتت لفترة.. خيل لي أنها طويلة.. عدتُ أسألها لأحثها على أن تكمل (وماذا بعد؟).. حينئذ اندفعت صائحة كأن

سؤالي لم يكن متوقعًا.. قالت (وماذا بعد ماذا!... عاشت وتشيطنت مثلك، وأصبحت مثل الحصان، ألم تكن موجودة اليوم عندما كنا نعمل البسكويت.. نم الآن وكفى.

لكني لم أكتفِ بما قالت؛ فعدت أسألها مرة أخرى:

- هل سيدي لطيف هذا رجل شرير، ولهذا دفنوه بمفرده فى هذا القبر؟

بدا أنها فقدت كل ما عندها من صبر عندما نفخت بشدة من فمها، وقامت من جانبي متوجهة نحو الباب، وعندما كانت عند الباب استدارت وأجابت على سؤالي الذي طرحته منذ لحظة.. قالت: (هو رجل طيب مع الطيبين، ولكنه لا يتهاون مع الشياطين المتعبين أمثالك).. تناقص الضوء تدريجيًا بتناقص فرجة الباب التي كان ينعكس من خلالها أطياف لمبة الجاز.. لحظات من نعاس أعقبت ذلك.. تبدَّدت عقب سماع اصطفاق أجنحة قوي غير مألوف.. حملقت فى المقام من النافذة الحديدية.. ازداد اتساع عيني عندما رأيت على المقام ديكًا روميًا ضخم الجسم كثيف الريش لامعهُ، إثر انعكاس ضوء القمر عليه.. لحظات وطار مختفيًا فى السماء.. عندما جريت على جدتي وأخبرتها قالت: (إنّ الديوك الرومية لا تطير فى الفضاء، أليس من الأفضل لو نمت؟).. كان ذلك آخر ما سمعته منها، كأن روحها قد صعدت تلك الليلة مع الديك تاركة وراءها جسدًا مكومًا على الفراش، عندما حركته فى الصباح لم يكن سوى قطعة من لحم وعظم لا تنطق. كنت ما أزال مستلقيًا على الفراش، أرمق المقام الساكن مكانه منذ عشرات السنين عندما دوى فجأة نفس الصوت الذي سمعته منذ تسعة عشر عامًا... عندما نظرت إليه بدا لي أنه نفس ما رأيته فى صغري، عندما أمعنت النظر فيه لم أجد غير فرخ حمام انتصب للحظات على المقام،

وتلفّت حوله ثم ارتفع فى السماء، بدا ظاهرًا لوهلة على ضوء القمر، ابتعد حتى صار نقطة صغيرة امتزجت بالظلام.. صوتها ما زال فى أذني وهي تبتسم محدثة تلك الدوائر التي تصيب العجائز فى وجوههم (إن الديوك الرومية لا تطير فى الفضاء، أليس من الأفضل لو نمت؟)

طرقات قوية على الباب الخارجي، جعلتني أقفز ذعرًا من فوق السرير النحاسي مستيقظًا من ذكرياتي.. شبح أسود يقف عند الباب.. عندما أشعلت عودًا من الكبريت تبين أنه رجل.. صوته الأجش كأنه يأتي من عالم آخر أو لعله أحضرني من العالم الآخر.. سمعته يتكلم عن الموعد: آسف على التأخير (قال ذلك).. الظروف، الطريق طويل.. الطريق غير مسفلت.. أعمدة الإضاءة المطفأة.. عجلة السيارة الأمامية اليمنى. استمر مسترسلاً، هل تصدق هذا؟.. ثقبين لمرتين فى نفس الإطار.سؤالي الفاتر عمّا يريده دفعه ليؤكد شخصه، قال: أنا الحاج فتح الله، أتذكر؟! لقد كلمتك بالأمس فى التليفون بخصوص شراء الدار....

كان الثقاب ما زال يتراقص بين يدي، أحسست بناره تكوي أُصبعي، نفخت فيه، تفشّى الظلام مرة أخرى فى أركان الدار المعطّنة، توجهت نحو باب الدار خارجًا منها دافعًا الحاج فتح الله برفق ليحذو حذوي... أغلقت الباب، قلت له بهدوء: (لقد جئت متأخرًا، لقد غيرت رأيي، لن أبيع الدار).



الرؤية من أعلى

كنت جالسًا بالشرفة أحدق فى السماء.. لفحات من هواء هبت مع نسمات من ذكريات الزمن البعيد.. تذكرتها جيدًا.. أغلبها يدور فى الإسكندرية - مدينتي المفضلة - نهار الإسكندرية بحر وشمس ورمل أصفر... فى ساعة نهارية مبكرة من كل يوم يبتلع البحر رواده، وخلطة سحرية مكونة من هواء وبحر وشمس وملح تحيلهم إلى أشخاص آخرين، وقت الغروب يلفظهم البحر بوجوه جديدة حمراء وسمراء، متعتي كانت الاستلقاء تحت الشمسية على الشاطئ والنظر إلى أعلى، بينما رأسي تتكئ فى استكانة على كفي. فى لحظات كثيرة من لحظات استلقائي تقع عيني على صف العمارات الشاهقة البيضاء المطلة على البحر، بعضها كان يزيد عن العشرين طابقًا والبعض الآخر لا تتعدَّى الخمسة طوابق. أبي الذي كان يجلس بجانبي ينظر فى اتجاه البحر.. قلت له مرة: (من يملك شقة فى الطابق العشرين تكشف له شواطئ الإسكندرية، لن يكون فى حاجة للنزول إلى أسفل، سيكتفي بالجلوس فى الشرفة والرؤية من أعلى).. عندما قلت له ذلك أجابني ساخرًا:(احلم على قدر ما تملك).. كان كأنه استطاع أن يقرأ ما يدور فى عقلي.

- فى المساء.. التمشية على الكورنيش ممتعة. أجتاز مع أبي وأمي وأخوتي وجدي ذو العكاز المسافة بين اسبورتنج وميامي مشيًا على الأقدام. هواء الكورنيش الجميل لا ينقطع، يجعلنا نشعر بالبرد فى

صيف يوليه، نرتعد ونرتعش ونضم ياقات ملابسنا.

عند الجلوس للراحة قليلاً على سور الكورنيش، ومشاهدة المارة والسيارات وتأمل العمارات العالية، يكون لأكل الذرة المشوية والتين الشوكي وقزقزة الترمس وشرب المثلجات لذة بالغة. والضحكات والبسمات وتذكُّر الأشياء والأشخاص شيء ممتع هو الآخر.

نهاية الليل فرصة لاقتناص عشاء مجاني عبارة عن كيزر بالجبن الرومي أو البسطرمة مع حلويات وجاتوهات معلبة بداخل علب كرتونية فاخرة.. الحصول على ذلك سهل فى الكافيتريات الليلية المطلة على البحر - ذلك عندما تكون عامرة بإحدى الأفراح - المطلوب فقط الجلوس على إحدى الكراسي مع المعازيم ومشاهدة الراقصات والمغنيات وانتظار موزع العشاء.. فى بعض المرات نحصل على العلب وننصرف لندخل ملهًى ليليٍّ آخر، أسماء بعضها ما زال عالقًا فى ذاكرتي، نفرتيتي وكليوباترا والشاطبي.

ضحكت عندما تذكرت جدِّي، وهو يستند على عكازه مرتديًا الجلباب الأبيض كأبي... كان ذلك عندما نظر لإحدى الفنادق العملاقة فئة الخمسة نجوم.. وقتها شهق من جمال الفندق وارتفاعه.. قال: (لابد أنها باهظة الثمن... إن ثمن الغرفة الواحدة لا يمكن أن يقل عن الخمسة جنيهات)

- فى أيام أخرى نذهب للتسوق وشراء الملابس والأحذية الجديدة ذات الأسعار المحدودة.. ذلك عندما نكون فى محطة الرمل أو المنشية أو خالد بن الوليد بميامي.. الشوارع دائمًا تضج بالحركة... لا أحد يستريح فى الإسكندرية... فى الوقت الذي يذهب فيه أشخاص يحل محلهم آخرون... تبدو الصورة عن بُعد كأنهم نفس الأشخاص الذين فى البحر، ونفسهم على الكورنيش، ونفسهم عند الذهاب للتسوق،

وفى النهاية تبدو الإسكندرية دائمًا صاخبة تضج بمرتاديها.

كنت ما زلت جالسًا بالشرفة عندما وقفت ونظرت لأسفل... الأشياء صغيرة غير واضحة، لم تكن ستبدو غير ذلك من الطابق العشرين. عندما تأملت الإسكندرية كانت مختلفة عمّا عهدتها، شيء تغير أو شيء أفتقده. أمواج البحر تضرب فى شواطئها صامتة كأنه فيلم غير ناطق، الأشخاص نقاط صغيرة بلا ملامح، والشوارع خطوط بلا روح، والهواء الذي يصل إليَّ لا يحمل صهد الذرة المشوية على الخشب المحروق أو رائحة البطاطا أو الفول السوداني المحمص بذلك الفرن الصغير على العربة. الأشياء بدت بعيدة مملة، الشيء القريب مني كراسي البامبو والسجاد الفاخر والحرير الناعم، سؤال واحد شغل فكري لفترة من الوقت: (أيهما أفضل الرؤية من أعلى أم الرؤية من أسفل؟؟).



موسم الهجرة إلى أسفل

- (مرحلة ما قبل الهجرة)

بدايةً لم يكن هناك مكان لقدم زائدة.. القاهرة كساندويتش لحم مفري يمتلئ عن آخره، الكل يلهث بين ضفتيه، فى الأتوبيس قد أحرك قدمي لكنني لا أضمن ألا أدهس قدم أخرى لا تخصني، قد يضطرني ذلك المأزق أن أعود لمكاني، لكنني للأسف قد أجده شُغل، الأشخاص التسعة الذين اتحدت رؤوسهم برأسي صرنا نشترك معًا فى شيء واحد؛ أننا كائن أسطوري لم يولد من قبل يملك عشرين رِجلاً وعشرين يدًا وعشرة رؤوس أنثوية وذكورية بعشرين عين وأنف واحدة تسحب نفسًا واحدًا كبيرًا، رغم أننا نملك عشرة رؤوس إلا أن تفكيرنا واحد، الكل ينصب حول فكرة واحدة؛ عدم الحركة.. الكل يخشى أن يفقد موقعه.



من نافذة الأتوبيس.. الآخرون الأثرياء يقفون بسياراتهم اللامعة، أحدهم يستطيع أن يتحرك؛ فهناك مساحة براح بين سيارته والأخرى أمامه، غير أنه قد يصطدم بها، حين يفكر فى الرجوع لن يجد ذلك البراح الذي كان قد تركه خلفه.. عندئذ سيدرك أن تلك السيارات التي تحوطه من

الجهات الأربع قد تحولت لمتاريس تعوقه عن الحركة.. ووقتها فقط سيصبح واحد منا وسيشاركنا تفكيرنا.

***

- (مرحلة الهجرة إلى أسفل)

فى السنة الأولى من الهجرة اتجهت الآراء والأفكار نحو التوسع الرأسي لكسر العقدة المرورية.. بداية تم حفر أنفاق مترو وأخرى للسيارات وعبور المشاة وترع تمرّ من تحت قاع الترع. على جوانب الأنفاق السفلية قامت أكشاك صغيرة متنوعة لبيع الكتب والجرائد، وأخرى للتصوير الفوتوغرافي وسنترالات صغيرة.. تطور الحال عندما تمّ تحويل تلك الأكشاك لمقاهي ومطاعم تحت أرضية لخدمة عابري الأنفاق المرورية.

- (السنة العاشرة)

الشلل العلوي والتلوث والصهد النهاري المزعج، يعادله الجو المكيف السفلي دفع كثيرين للنزوح إلى أسفل. أعقب ذلك تحرك حكومي للقضاء على التعديات. ولأن التعديات كانت كثيرة فقد كان التباطؤ أكثر. فى مرة لاحقة تم اكتشاف بيوت وورش ومصانع صغيرة مقامة على جانبي بعض الأنفاق، وكان ذلك أكبر تعدٍّ.

***

- **(السنة الخامسة عشر)**

فى خلال تلك السنة تم حفر أنفاق خاصة لبناء وحدات سكنية تحت أرضية وأخرى للمصانع والورش، كان ذلك للحدّ من التعديات على الأنفاق المرورية. الغزو السفلي جعل قاع القاهرة كقطعة من الجبن الذي تخلله الدود. أكبر تعدٍّ حدث عندما اكتشفت الشرطة حقل قمح صغير بإحدى الأنفاق غير الملحوظة، تُسرق مياهه من واحدة من الترع النفقية. مع استمرار النزوح إلى أسفل لم يتبقَّ بأعلى غير قوات الشرطة وقوة الجيش، وقتها فقط أدركت أنه لا داعي أو فائدة من بقائها بأعلى. كان هذا عندما بدأ نزوح قوات الشرطة والجيش إلى الأنفاق الأرضية.



بعد مرور عشرات السنوات كان هناك من يسخر ويضحك غير مصدق، عندما يتحدث أحد عن أشخاص آدميين يعيشون فوق الأرض....

كان الرد دائمًا ساخرًا..

(أشخاص يعيشون بأعلى.. يا له من شيء خيالي!!!)



نغمات رتيبة

امرأة ذات أياد متشققة وكعوب جافة وعظام بارزة... هكذا صارت، كحصان هزيل آنَ الأوان ليصيبه طلق ناري بمنتصف رأسه... يداها المتشققة بخطوط متعرجة سوداء تزرف قطرات من فقاقيع صابونية كثيفة.. تمتد لسلك المذياع السوني الياباني، تثبته فى الحائط الرمادي اللون فاتحه، لونه الرمادي يتناسب مع الرتابة التي تمر بها، تبحث بين موجاته السقيمة عن أغنية عاطفية متراخية، يتناهى إلى أذنيها صوت رخيم تعرفه، تدرك أنه صوت أم كلثوم، ينتشي جسدها الهزيل، ارتعاشة مصاحبة تزيدها برودة الجو الشتائي الطوبي، المياه الباردة تكاد تجمد أوصالها، نسمات باردة تتسلل من النافذة المفتوحة أمامها، منذ ساعة تقف أمام أكوام من آنية وصحون متسخة كأكوام الجرائد التي تراكمها كل يوم لتقرأها، الدهون الممتزجة باللون السماوي الأحمر تجلطت على الأسطح الصاج، تتعب فى إزالتها، كلمات أم كلثوم تشجيها، تزلزل دخائلها الحبيسة (إنما للصبر حدود) أغنية أم كلثوم، يوم سرمدي لا ينتهي كأنه فقد القدرة على احتساب الوحدات الزمنية. شاردة تنظر من النافذة، كل شيء هو لوحة كئيبة ذابلة لأشياء سكتت عن الحركة؛ المباني.. السيارات... الشوارع الدميمة الوجه المتشربة بماء مطر وصرف صحي.. الطينية.. هي فقط كآلة زمنية لا تتوقف تنتقل من زمان لزمان ومن مكان لآخر، لا وقت للثبات.

زوجها لا يساعدها فى شيء، بينهما فتور أزلي، كإلكترونات ذرة يدوران فى أفلاك متخالفة، لا يلتقيان. تتذكر سيناريو يومها المتكرر، طابور الخبز الذي عليها أن تجتازه، يقول لها زوجها: (صف النساء دائمًا أقل من صف الرجال).

ازدحام سوق الخضار كيوم الحشر على أرض طينية وحلة، ارتفاع أسعار القوطة، الكنس والمسح والغسل بأطراف تحجرت كقطع من ثلج غير ذائب، طهي الطعام، نشر الغسيل على المارة، إطعام الصغار وتنظيف أماكنهم المتسخة، مهام متعاقبة تنتظرها دائمًا صارمة حادة موتّرة كطابور الخبز، صوت مذيع نشرة الواحدة صباحًا يقطع آهات أم كلثوم الحزينة، كلمات مشوشة بضجيج الأواني المعدنية على الحوض الاستانلس، شيء عن ضربات صاروخية موجهة إلى العراق، ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عامًا دخل عليها ذات ليلة، رأسه الصغيرة كانت مغطاة بخرقة من قماش ملون تخفي شعره الأكرت، عندما سألته أجابها: (إنه علم أمريكا... القوة) قالها كأنه يعشقها... يقبض بيده فى الهواء على لا شيء، كما لو أمسك شيئًا غير مرئي (تستطيع أمريكا أن تطلق صاروخًا نوويًا من أرضها عابرًا للقارات يسقط فوق رؤوسنا الآن).. كمن يزهو أو يفتخر بمعلوماته كان يخاطبها، عشرات من الجرائد تحتفظ بها، يشع منها رائحة التراب العطنة، تتحين الفرصة لتقرأها، يحضرها زوجها وتختزنها، يرسم على شفتيه ابتسامة ساخرة، لا ينطق بشيء.. فقط يتركها وينصرف، دائمًا ينصرف.

تتهادى إلى أذنها عبر المذياع السوني أحداث جديدة؛ قتلى فى سيراليون... أين سيراليون؟!، صواريخ تضرب العراق كتلك التي ضربت السودان وأفغانستان، كأنه موسم لصيد الطيور المحلقة، من قبل كان العراق يغزو الكويت ويسقط قذائفه على السعودية، وإسرائيل تفرقع كما لو كانت

بُمبًا أو هياكل فارغة، كلمات لا تفهمها؛ عولمة... جات... واي بلانتيشن... لوكيربي... كلغة جديدة لم تتعلمها، أو أن عقلها قد سقط منها، أزمات اقتصادية تجتاح العالم ينقلها المذياع إليها، تبرر بها ارتفاع سعر القوطة فى السوق، صواريخ أمريكا الطائشة تسقط يمينًا ويسارًا... تتذكر ابنها (تستطيع أمريكا أن تطلق صاروخًا نوويًا من أرضها عابرًا للقارات يسقط فوق رؤوسنا الآن)

تنظر للسماء السوداء القاحلة إلى النجوم عبر النافذة... تتوقع أن ترى شيئًا، لا شيء غير الصمت. الساعة الواحدة والنصف، أصابع أقدامها العارية تتقلص متباعدة عن البلاط، تتقي برودته اللاسعة، ابتسامة فاترة انعكست على أكوام من الأواني الناصعة، قطرات نظيفة لامعة تساقطت عنها؛ ورنينًا رتيبًا أحدثته كوحدات الثواني العالقة خالط ضجيج سيارة عابرة. تنفض عن يدها شذرات الماء، تجذب سلك المذياع من الحائط. أجواء الشقة ترزح ساكنة تحت غطاء من الصمت.. كل من حولها نيام، أولادها يغطون فى نوم عميق منذ ساعات، الغطاء الصوفي الثقيل تجذبه فوقهم ليحذ أعناقهم.

فى الغرفة الداخلية على نهاية الردهة الممتدة ينام زوجها.. غطيطُه غير مريح، إلا أنها اعتادت عليه كصفير صراصير الليل المزعجة، سلمت بوجوده مثلها ككائن طفيلي يتسلقها وتتسلقه أحيانًا عندما تشعر بالرغبة أو تحتاج للدفء، تثني رجليها المجهدة، تمتد يدها أسفل (الشوفنيرة) العملاقة، تسحب كومة الجرائد المتراكمة، تضمها بإحدى يديها، باليد الأخرى بطانية وبرية ثقيلة، وطبقة على شكل انثناءات تربيعية، تندس تحتها على كنبة الصالة البلدية، تسند رأسها المرهقة على التكاية القطنية الصلبة، يدها المتشققة بخطوط متعرجة سوداء تتقلب حائرة بين صفحات الجرائد

المكدسة، وعيناها الفضولية تحاول أن تلم بما تستطيع أن تعرف ما يدور حولها. عقلها صار قطعًا من تلافيف لحمية ليس لها قيمة، منذ زمن طويل لم يعد يعمل، شحنات من النعاس تقاومها، تعشش داخلها، من حولها لا يعشش غير البرد والصمت.. تصر على القراءة. كانت قارئة جيدة قبل الزواج، تتذكر.. تتحسر على ذلك. سُحب بيضاء تتماوج أمامها، تسود أو يهيأ لها ذلك، لا تلبث الجرائد أن تسقط من يدها، يخرج من فمها غطيط مزعج، ينطلق متتابعًا من بين شفتيها، عند الإنصات له يبدو غطيطًا غير مريح كصفير صراصير الليل المزعجة.



فوق الشخشيخة

(من فات قديمه تاه)... قالها له أخوه عندما قذف بعنف الهوائي القديم من فوق الشخشيخة على السطح الأسمنتي، وصفق كفيه ببعضهما كأنه تخلص لتوّه من شيء حقير..

ابتسم له.. لم يعلق.. رفع الهوائي الجديد المثبت فى ماسورته الطويلة المجاوزة السبعة أمتار. أسقط طرفها فى المكان المخصص لها.. العرق المتساقط منه بلل ثيابه، جعله يبدو وكأنه سقط فى المالح. حرك يده على جبينه، نفض عنه قطرات الماء المتجمعة بغزارة، شعر بسخونة داخل جسده، نظر إلى الهوائي برضا، لم يقتنع بغير أغلى الهوائيات، اعتقاده المعتاد أن الشيء الغالي يبرر ثمنه، حمولته كانت ثقيلة.. أرهقته.. الجلوس لتركيب محتوياته الكثيرة التي بدت مفككة كلعبة المكعبات التي يلعب بها أخوه الصغير، موائمة القطع مع بعضها.. تركيبه الذي استغرق ما يقرب من الساعتين ثم صعوده فوق الشخشيخة... كل ذلك أجهده، لم يسرّي عنه غير أنه سيجني بعد قليل ثمرة جهده.

نسمات هواء عابرة عبثت بوجهه أتاحها انفتاح البوابات الليلية وقلقلة الكتل الهوائية الساكنة فى هذا الارتفاع، قال له: (اضبط الاتجاه.. اجعله ناحية القبلة) ابتسم فى نفسه، كان متأكدًا أن ذلك الهوائي الذي اختاره لن يكلفه ذلك العناء الذي كان يبذله مع الهوائي القديم.. بدأ صوته يبتعد

فى نزوله السلم، صوته كان متقطعًا غير واضح، لم تحتوه جدران، ضاع فى الفضاء الرحب، فهمه رغم ذلك.. قال له: (سأضبط القنوات وأبلغك من شباك الإضاءة).

- عندما كان ممسكًا بماسورة الهوائي شعر بنفسه كجندي فى المعركة، يدير الرادار بكافة الاتجاهات، يرصد طائرات العدو، يتعقبها ويعطي الأبعاد والإشارة لضربها. تجمدت نظراته على النجوم المضيئة، أحس أنه قريب منها، بينها، يكاد يمسك بها.. إنها صغيرة جدًا وليست كبيرة كما يدّعون. صوت يهتف من بعيد بدا له غريبًا، كأنه قادم من بين النجوم، يخمن أنه أخوه.. سمعه مرة أخرى يصرخ.. كان يقول: (أدره إلى اليمين) أداره باستغراب، اعتقد أن أول ما سيقوله له: (انزل من فوق الشخشيخة) لكنه لم ينطقها، تكرر صياحه، نبرة صوته مختلفة عمّا اعتاد عليه.. أرجع ذلك لضغط الهواء، كأنه آت من دولة أخرى بثه الهوائي العجيب الشكل: (أدره إلى اليسار) الكلمات البعيدة ما زالت تهاتفه، ضائعة غير أنها تعرف طريقها إلى أذنه. شكله الغريب جعله يشرد فيه، يتأمله. الطبق الكبير والطبق الصغير أمامه كطبق الفول المدمس فى الصباح، الأشواك، النتوءات المعدنية المتشعبة فيه لكل الاتجاهات، بدا له كقنفذ.
- فى المحل عندما كان يبحث تأملت عيناه الهوائيات المعلقة بواجهة المحلات كأنها طوابير عرض، أشكالها متباينة، احتار بينها.. أحدها كان ذو مظلة حديدية تغطيه. ابتسم فى نفسه، علق: (لحمايته من المطر)... (أدره إلى أقصى اليمين) الصوت يناديه، يتكرر. أحس بتعب الوقوف، رغبة فى التقيؤ فاجأته عندما نظر لأسفل وبدت له أرضية غرفة الإضاءة البعيدة، لم يظهر مداها بعيدًا واضحًا فى الظلام. ابتعد حذرًا، جلس فوق الشخشيخة بجانب الماسورة، استند

على سورها المنخفض الذي لا يتعدى الأربعين سنتيمترًا، عاد يتأمل الهوائي.

- قال للمهندس الكهربائي وعينه تجول بمحتويات المحل الواسع (ما الفرق بينها عمومًا؟).. أجابه باقتضاب: (نوعيات). شعر أن سؤاله كان غبيًا، أعاد صياغته: (أيهم أفضل؟) أشار له على هذا الهوائي، بدا أنه واثقًا من نفسه وهو يشرح إمكانياته. تحدّث عن المقاومة وعاكس الموجات ومستقبل الموجات. أفصح وجهه عن عدم فهم شيء، أوجز المهندس كلامه، قال بضيق: (كلما زادت مساحة الهوائي وقطعه المعدنية كلما زادت قوة استقباله للقنوات.
- فى البيت عندما نظر أخوه للهوائي بعد تركيبه ابتعد قليلاً... نفخ بفارغ صبر، كان يتصبب عرقًا، سأله: (هل أنت متأكد أن هذا هو شكله النهائي؟!)

ذلك الصوت القادم من بعيد عاد بنبرة أقوى: (أدره لأقصى اليسار). مرت عيناه عابرة على الكون المحيط، شعر أنه يجلس فوق سحابة بيضاء تعتلي العالم: الأشجار عيدان كبريت، فرع نيل بدا كسرسوب ماء مسكوب، الأشخاص نقاط متحركة، الشوارع خطوط ودوائر ومثلثات. شرد بين النجوم، نظر للهوائي، حاول تخيل قوته، القنوات الممنوعة وغير الممنوعة، أفلام الجنس الفاضحة، المشاهد العارية المثيرة.. استدعى عقله بعضها؛ يشاهدها عند الأصدقاء، أحس بالإثارة، كأنها صور فوتوغرافية مثبتة فى ألبوم داخل ذاكرته، تعيد عرض نفسها كل فترة: (أدره دورة كاملة).. ذلك الصوت الذي لا يكف، نفخ بأقصى ما عنده، صرخ بأعلى صوته: (ما الذي يحدث عندك؟ ألم ينضبط الإرسال بعد؟!) لم يصله رد، فقط ذلك الصمت الرابض من حوله، قام من جلسته، تمشى فوق الشخشيخة، بدا له الكون

فسيحًا أكثر مما كان يتصور، شعر بالرغبة فى التبول، نظر حوله، تأكد أنه فى مكان غير مرئي من أحد، بال على أرضية الشخشيخة المبلطة، شعر أنه يبول على الدنيا، صوت خطوات صاعدة تقترب. اقترب من الحافة، ظهر له أخوه مبتسمًا يحمل بين يديه صينية معدنية تحمل فوقها كوبين من الشاي، بين شفتيه سيجارة اقتربت من نهايتها، تناهى لأذنه عندما كان أخوه صامتًا ذلك الصوت البعيد: (أدره فى الاتجاه الآخر)، التفت بعصبية حوله يبحث عن مصدر الصوت، استطاعت عينه أن ترصد أنه ليس وحده الجالس على قمة العالم، نظر لذلك الشخص فوق الشخشيخة على العمارة المجاورة، يده كانت ممسكة بماسورة طويلة آخرها هوائي، عندما تأمله بدا له عملاقًا أكبر من الذي أحضره - طبق كبير وطبقان من الأمام ومثلهما من الخلف وأشواك ونتوءات متشعبة لكل الاتجاهات، انتبه لصوت أخيه الذي وضع صينية الشاي وألقى السيجارة، قائلاً: (قليل من الشاي ثم نبدأ فى ضبط الهوائي)!!

* (الشخشيخة هي مصطلح معماري معروف في مصر، يرمز لذلك السقف الذي يعلو سلم العمارة لحمايته من الشمس والمطر)
** (الهوائي يرمز له في تلك القصة لذلك الذي كان مستخدمًا لاستقبال القنوات قبل ظهور الأطباق الهوائية والقنوات الفضائية)



اتصال هاتفي استمر ثلاث سنوات

طرقات إيقاعية منتظمة خلفها وراءه على الباب الخشبي الأثري الشكل، تركت بصمات غير مسموعة، حركتها كجرس يدوي تقليدي قديم لمدرسة ابتدائية، ولكنه جرس صامت، كان يفكر فى شيء آخر، حاول تذكر كيف يكون شكله، دقات متكررة دون جدوى على الباب، تبعها ملل وانصراف. كان متأكدًا أنه لن يجده، رغم ذلك فكر فى المرور عليه، جاءته الفكرة عندما كان فى قطار القاهرة قادمًا من شبين الكوم بلدته؛ سارينة القطار، لافتات المحطّات، أرقام الأعمدة، شكل الحصى المفروش على جانبي الطريق، كل ذلك كان يشير إلى اقتراب القطار من أشمون، لا تبدو له ملامحه واضحة جليَّة، صورة باهتة لوجه ممسوح لم يره منذ ثلاث سنوات، صوته يتردد فى أذنه، كأنه جالس فى ركن من عقله أو أنه مدون على جهاز لردِّ المكالمات الهاتفية، يعرفه دائمًا عندما يرفع سماعة الهاتف؛ صوته الأجش ذو البحة الصوتية الملحوظة كأن ركامًا من تراب يعلوه.

آخر مرة كلمه فى الهاتف قال له: (لقد وصلت اللحظة من فرنسا) كان ذلك منذ شهر، وصف له ما رآه هناك، برج إيفل، قوس النصر، الشانزلزيه، حديقة التيليري، اللوفر، الموناليزا، قال له كم هي جميلة حقًا، امرأة من العدم خلقها دافنشى. أخبره عن جولاته على شط نهر السين، مغامراته فى كباريهات البيجال، قال له أنه رقص الفالس والفلامنكو ورقص بلدي،

أخبره عن السنيورة ذات الجيب القصير والسيقان الفرنساوية الطويلة، قال: (بعد أن رأيتها أدركت أن الموناليزا هي لوحة لامرأة دميمة الوجه قبيحة. ضحك وهو يحدثه، أيقن أنه يغمز له عبر الهاتف، أكمل كلامه، قال: (لقد كانت أحلى معلّم رأيته في فرنسا).

شعر وهو يحدثه بأنه يحلّق ضمن الطيور الجميلة الحائمة في سماء باريس تتنسم رحيقها الجميل، ذرات جميلة من الجمال والمتعة تسللت له عبر الهاتف كأنها آتية من فرنسا، جعلته يشعر بالنشوة. اشتاق أن يراه، أن يحكي له أكثر فأكثر، قال له وقتها: سآتي لزيارتك اليوم. اعتذر له، ردّ عليه: (ما هي إلا سويعات قليلة أقضيها على أرض مصر بعدها نبدأ جولة لبعض عواصم أفريقيا قد تستمر لشهور).

قبل ذلك كلّمه عن زيارته لأمريكا، عن تمثال الحرية الذي رآه شامخًا عند مداخل ميناء نيويورك فوق جزيرة مانهاتن، عن صعوده لجبهة التمثال، عن رؤية العالم من ثقب في رأس امرأة، شيء ذكره له عن التخطيط البارع للشوارع الأمريكية، قال إنها تقاطعية تعامدية شاسعة بطريقة منتظمة دلّت على روعة المصممين الأمريكان. لم ينس أن يذكر زيارته لمتحف توت عنخ آمون على شط بحيرة متشيجان بشيكاغو، سأله مذهولاً هل تتحمل الدولة كل هذه المصروفات؟ بلغه ضحكه عبر الهاتف، ضحكه هدأ قليلاً، رد عليه: (هي مبالغ زهيدة يخصصوها لنا، غير ذلك هو من جيبي الخاص).

مرة أخرى في اتصال هاتفي طويل أخبره عن رحلتهم لبعض المدن والعواصم الأوروبية، بروكسل، أمستردام، باريس، كاليه، دوفر، حدثه عن جولاته بين شوارع ومعالم لندن، أكسفورد، بيكاديلي،ريجيت، قصر بكنجهام، ساعة لندن الشهيرة.

فى إيطاليا قال له: زرت بركان فيزوف ورأيت تماثيل روما العارية والفاتيكان. توقف عن الكلام، اندفع متحمسًا فجأة، قال: (لقد سلمت على بابا الفاتيكان هل تصدق ذلك؟) حدَّثه أيضًا عن رحلته النهرية فى نهر الراين بألمانيا، قال له: كأنه نهر من أنهار الجنة، ماؤه زلال لا تشوبه شائبة. كما كلَّمه عن مدينة فرانكفورت المبهرة بشوارعها، أما عن أثينا فقد أقسم له أنه عندما كان بها شعر أنه يتنزه على كورنيش الإسكندرية، أو أنه يجتاز المسافة بين اسبورتنج ومحطة الرمل جريًا على الأقدام فى الساعة التاسعة صباحًا كما اعتاد أن يفعل عندما يذهب لمصيف العائلة، وأنَّ نسيمها الجميل داعب بشرته كما لو أنه عبر إليه فوق البحر الأبيض.

سأله ذات مرة، ماذا تفعلون هناك بالتحديد؟ الفضول تملك منه، تذكر أنه سأله نفس السؤال منذ فترة، رغم ذلك أجابه دون تعليق، كرر نفس الكلام الذي سبق أن قاله، تعاقدات على بعض صفقات الأسلحة الخاصة بالجيش والتدريب على إدخال التكنولوجيا الحديثة فى إدارة شؤون الجيش.

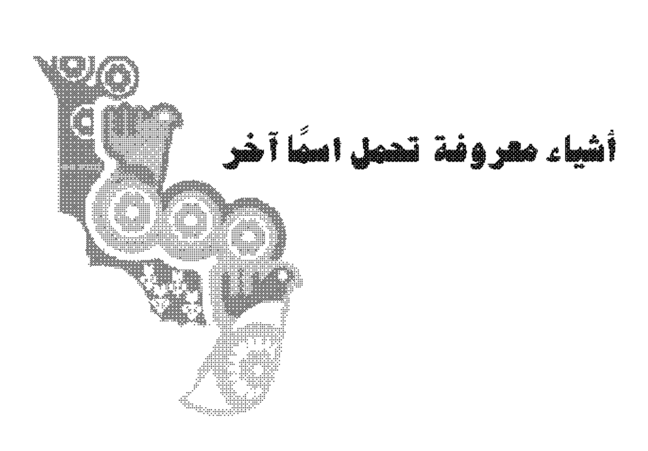


خطواته وهو يهبط ذلك السلم الرطب اختلطت بطرقاته على الباب وامتزجت بأفكاره، داخل عقله كان طائرًا بين عواصم أوروبا ومدن أفريقيا السوداء، حاول تخمين فى أي بلد أفريقية يتجول الآن، وأي ثياب يرتدي وماذا يفعل، التخمين الدائر فى عقله كان بين ثلاث أشياء، التجوال بين معالم البلاد أو التنزه فى الجبال فى رحلة صيد أو أنه يختلَّى الآن فى حجرة بفتاة سمراء، كان قد خرج من مدخل البيت، احتاج للجلوس على المقهى، مقهى المحطة مقهى بلدي هادئ مثير للخيال، على إحدى كراسيه جلس

ليشرب الشاي الثقيل ويدخن النرجيلة، كلمة محطة التي تبرز على اللافتة الكبيرة ذكرته بالمرة الوحيدة التي التقى معه فيها، كان بزيه العسكري الذي لم يميزه جالسًا أمامه، حديث طويل دار بينهما، كانا قادمين من القاهرة، النغمة الرئيسية لاهتزازات القطار دفعتهما للكلام معًا والتعارف، قال له إنه يهوى القراءة بشغف، لم يتسع الوقت لهما، تركه فى أشمون، تأكد أنه لن يراه ثانية، لمحه بعد لحظات يجري على رصيف المحطة يسابق القطار الذي بدأ فى الإسراع. سمعه وسط الضجيج يصرخ، طلب منه رقم هاتفه، ذكره له، لم يعرف هل سمعه أم لا، وجهه اختفى فى زحام الوجوه المتلاحمة، لحظات فقط هي الفيصل الوحيد بين شخصين التقيا لتوِّهما، تأكد له أنه سمعه عندما داوم على الاتصال به، استمر ذلك ثلاث سنوات.

كان ما زال جالسًا على المقهى، على مقربة منه تهادى إليه صوت غريب، بدا له كصوت رجل أجش ذو بحة صوتية كأن ركامًا من تراب يعلوه. تبين له أنه يشبه صوتًا آخر يرقد فى ذاكرته. ألقى إليه نظرات متفحصة،تسمرت عيناه عليه، الملامح اتضحت واحدة تلو الأخرى، كونت ما اعتقد أنه هو. البنطلون القديم والحذاء المترب الرخيص لفتا نظره، غير أن ما حرَّكه أكثر هو الكتاب الذي يجاوره على الكرسي. كان غلاف الكتاب يحمل صورة لامرأة سوداء ذات شعر أكرت قصير، عندما تأملها مذهولاً تأكد له أنها صورة لامرأة من الجنوب الأفريقي، كان الكتاب بعنوان (جولة بين عواصم إفريقيا).





أشياء معروفة تحمل اسمًا آخر

في اللحظة الفاصلة عند انفتاح باب الفندق، سيتأكد له أنه قد ولج عالمًا جديدًا، الأشياء في الداخل رغم كونها تحمل نفس المسميات لأشياء يستخدمها في الخارج إلا أنها ستتلون بطابع ذو صفة خاصة لم يسمع عنه إلا في الحواديت وقصص ألف ليلة، في الداخل لن تكون الكراسي معدة لمجرد الجلوس فقط ولكنها ستتنكر على هيئات متنوعة وستحمل ألقابًا مختلفة بين الاستانبولي والفوتيل المطرز والأرابيسك والجلد والبامبو والخيزران والهزاز، ذلك على حسب المنشأ والتاريخ والكيفية والحيز الذي تتيحه للجالس ليستريح فيه، بينما الأسرّة المفروشة بالملاءات الحرير ستكون معدّة للأحلام السعيدة مع حذف الكوابيس المزعجة، أما الماء فلن يكون لمجرد الشرب أو الغسل أو الاستحمام كما هو معتاد؛ ولكنه سيتخذ شكلاً بيضاويًا جميلاً تلتف حوله كراسي البامبو والخيزران والكنبات المفروشة بالتكايات الأسفنجية، إلى جانب الموائد المحمّلة بأكواب العصائر والمشروبات الكحولية وغير الكحولية.

- في الصباح عندما أوصلته زوجته لدى الباب، وعدّلت من وضع ياقته ونفضت عن كتفه التراب كعادتها، قالت له: (انتبه لنفسك المبلغ كبير ونحن بحاجة إليك) عندما قالت ذلك كان يعلم أنها تقصد (ونحن في حاجة إليه).

مكافأة نهاية الخدمة مبلغ كبير، ولكنها فى ذلك الفندق الفخم قد تكفي شهرًا بالكاد، فى داخله رأى أن من حقه بعد سنوات من العمل والكفاح الطويل أن يحصل لنفسه على عطلة صغيرة حتى لو كلفته هذه العطلة كل تلك المكافأة.

قبل أن يحصل على تلك المكافأة بشهرين تحولت على الورق إلى شرائح رفيعة كشرائح اللانشون أو البسطرمة؛ ذلك بين ترميم الجدران وإصلاح السباكة وتثبيت البلاط المخلخل وجهاز ابنته وأقساط الثلاجة الجديدة.

- منذ يومين طلب منه ابنه شراء حذاء جديد، بينما رغبت زوجته فى اقتناء عباءتين لترتديهما أمامه أو عندما تكون عند جارتها، لم تنس أن تذكره بشراء ملابس داخلية جديدة له بعد أن تحولت ملابسه لهلاهيل بالية. أما ابنته الصغيرة فقد طلبت منه كتبًا خارجية للعام الدراسي الجديد، أجابها بغضب: (عندما يحل العام الدراسي الجديد ننظر فى أمر الكتب الخارجية).

ما زال واقفًا أمام باب الفندق يتحين ومضة شجاعة وإصرار تتبدّى بداخله فيهرع إلى الداخل. على مقربة منه فتاة بدا أنها تتقدّم نحوه، تنُورتها القصيرة فوق ركبتيها بعشرين سنتيمتر، وبلوزتها الجيل الضيقة أبرزت مفاتنها. انتبه إلى أنها تحدثه، تنطق باسمه كطبقات من الكريمة الهشة، قالت له: (أنا من خدمة الفندق)، اقتادته من يده عبر ردهات الفندق الواسعة إلى جناح فخم، داخل الجناح تراصت التكايات على الأرض بمحاذاة الجدران، تركت فى المنتصف مساحة لمائدة أرضية طويلة تعجّ بمختلف أصناف المأكولات المشوية والمقلية وثمرات الفاكهة الطازجة البراقة وأكواب وأباريق فضية وذهبية، على جانبي المائدة صفان من الفتيات الساحرات المثيرّات. أجلسته فى مواجهة المائدة، الجلسة مريحة

تبعث على الاسترخاء، هواء رقيق داعب وجهه، تبين أنه من ريش النعام الذي يتحرك بين يدي خادمين يقفان وراءه. أنغام موسيقية هادئة انطلقت فى ركن الجناح من فرقة موسيقية مكونة من عشرة أشخاص، رقصت عليها أجساد الفتيات، رقصهم كان مثيرًا يكشف النهود والبطون والسيقان البيضاء. شعر بالنشوة والسعادة، أخرج رُزَم النقود التي فى جيبه، أخذ يقذفها على الخدم والراقصات والفرقة الموسيقية، انحنوا له بشدة. أغدق عليهم الأموال أكثر فازدادوا انحناءً.

بعصبية تحسَّست يده جيوبه، عندما وجد المكافأة ما زالت معه أدرك أنه كان يحلم بينما لا يزال واقفًا أمام الفندق، رغم خوفه الشديد على المكافأة إلا أنه كان مدفوعًا إلى الدخول. التقطت عينه بعض الكلمات المكتوبة على لافتة مثبّتة خارج الفندق، مطاعم وبارات، كبائن، تروبي كانا، بلفيدير، حمام سباحة، نادي رياضي وساونا، لم يفهم منها غير كلمات بسيطة.

عندما دفع بيده الباب الزجاجي للفندق حدث التقاء بين تيارين، فى الداخل لفحات باردة أفرزتها فتحات المكيف المركزي، بالخارج صهد شهر أغسطس الشديد ورطوبته، لحظة أن امتزج التياران معًا تولدت نسمة دافئة استلذ بها. شخص تقدم نحوه، حدَّثه باحترام مبالغ، قال له: (فى خدمتك) صوته المتزن اختلط بأصوات وأفواه آخرين ينتظرونه فى البيت (ترميم الجدران، السباكة، الثلاجة، البلاط، الجهاز، الحذاء، العباءتين والكتب الخارجية) تنبه لصوت مُحدِّثه الذي بدا أنه تغير قليلاً بينما يعيد صياغة عبارته بنبرة أقوى، بدلته الفاخرة بدت له أنها توازي مجموع ما يقبضه فى شهرين. تحسس جيوبه، تذكر أنه فعل ذلك عشرات المرات منذ قبضها فى الصباح، استدار فجأة متجهًا صوب الباب. فى طريقه للخروج التفت إلى الخادم الأنيق، سأله بفضول:

(ما أقرب مكتبة تبيع الكتب الخارجية؟)

بالخارج عندما اصطدم باللفحات الحارة تذكر أن موسم الدراسة لم يبدأ بعد، اخترق الشوارع الجانبية الضيقة متجنبًا لسعة شمس الثانية ظهرًا، فى طريقه إلى بيته أخرج قائمة مشتريات دستها له زوجته فى جيبه صباحًا.، بدأ يقرأها بفتور، عندما حاول تذكر ما سيأكله اليوم احتفالاً بالحصول على المكافأة ابتسم، فقد أخبرته زوجته بالأمس أن الغداء اليوم سوف يكون طبقين من الفول النابت بالزيت الحار والبطاطس المقلية مع مخلل الباذنجان!!!



الأسرار الأربعة لشجرة الزنزلخت



- لشجرة الزنزلخت أسرار أربعة،
- وما هي؟
- (ستسمعك وتفرحك وتخيفك ثم تضحكك)

هكذا يجيبني دائمًا عندما أسأله عن الأسرار الأربعة لشجرة الزنزلخت، ولكنني لا أفهم منه شيئًا، هذه المرة قلت له:

(سأذهب إليها وأثبت لك أنها شجرة مثل بقية الأشجار وليست لها أسرار)

فقط، ابتسم ولم يعلق.

- السر الأول : السمع

عندما استندت على جذع الشجرة وقت الحرور سمعت حفيفها، للوهلة الأولى اعتقدته تلاطُم أوراقها، لكنني تذكرت أننا في فصل الخريف، والصوت لم يكن غير زقزقة عصافير نبتت على أغصانها.

- السر الثاني : الفرحة

بينما كنت مستلقيًا أتأملها، رسمت أغصانها العارية خطوطًا كروكية ساذجة، عندما تأملتها أكثر لاحظت أنها شكلت لفظ الجلالة (اللّه) وبجوارها (محمد)

فتهلل وجهي وغطته مسحة من السرور والفرحة.

- السر الثالث : الخوف

كنت ما زلت مستلقيًا تحتها عندما تلمست أصابعي جذعها، فجأة لم تبد كشجرة، لكنها تجلَّت لي كامرأة عارية تفتح ذراعيها، عندما دققت النظر لم أجد غير عجوز شمطاء من جهنم تريد أن تنشب بي مخالبها فارتعدت وجريت مبتعدًا.

- السر الرابع : الضحك

فى الوقت الذي كنت أجري مبتعدًا عنها بدت مِني التفاتة نحوها، من بعيد لم تبد سوى شجرة زنزلخت جافة فاندفعت فى الضحك، وقتها تذكرت كلمات صديقي: (ستسمعك وتفرحك وتخيفك ثم تضحكك).



الجدَّات لا تمتن دائمًا

أنبوبة الجلوكوز المستسلمة فى صمت فوق رأسها تقطر دموعًا منذ شهرين، المعلّقة فوق سريرها النحاسي العتيق، جسدها المستلقي على الفراش غير آبه بما حوله، عويل النسوة ولطم الخدود والتعديد وصفق الأوراك وتغبير الوجوه، دموع الولايا المتساقطة بغزارة على أرضية دارنا الترابية تحيلها طينًا، جري الأقدام، دهس الأغراض، أعينهم المصوّبة نحوها كأنها ستخترقها، كل ذلك لم يقنعني أنها ماتت، وابتسامتها الساخرة المتجمدة على شفتيها تنبئني أنها تهزأ بهم وستفاجئهم الآن واقفة على قدميها تتحرك بخفة، تقول لهم ضاحكة أنا لا أموت، سخرت فى نفسي، جدتي الفرعونية خالدة لا تموت، دائمًا ما كنت أقول لها أن ملامح وجهها الحادة تطابق وجه تلك السيدة الفرعونية المنحوتة على جدار المعبد القديم تضم يدها تحت ذقنها كأنها فى صلاة كهنوتية، أقول لها:

- أقسم لك يا ستي أنك،

وأسكت وأجذبها من يدها وأرجوها

- أستحلفك بالله يا ستي أن تأتي معي وتربيها.

تنظر لي باستخفاف، تطعم طيورها كسرات الخبز المقدّدة المبللة بماء، تقول لي:

- من تعنين يا بت؟

أحكي وأقترب منها وأهسهس صوتي كي لا ينصت لي أحد:

- هل تصدقي؟ لا تستر عورتها إلا بخرقة صغيرة بالية؛ ولكنها الخالق الناطق أنتِ يا ستي.

تترك ما في يدها، تصرخ في وجهي، تضربني على كتفي، تقول:

- واللّه لأخاطب أباكِ يربيك ويعلمك تبطلي مسخرة وسرمحة عند الأحجار من هلّة النهار، ومن الغد ما فى خروج من الدار.

جدتي الدءوبة الماهرة أذهلني نشاطها بين العجن وخبز المشطوح والطري وإطعامنا وتربية الطيور، والتنظيف وغسل الثياب كماكينة الطحن العملاقة الصلبة الملاصقة للدار. منذ ولدت لم أرها تتوقف يومًا، ذات مرة عندما كنت عند المعبد القديم سمعت رجلاً يخاطب أقرانه، قال: هذا المعبد عمره أكثر من خمسة آلاف سنة، حملقت فيه: (هذا المعتوه! مخبول الرجل!) قلت لنفسي، إنّ تصويرة جدتي منحوتة فى الصخر على الجدار من الداخل، ولكنني عندما سمعت ذلك الكلام مرة أخرى عدت لجدتي، سألتها:

- كم يبلغ عمرك يا ستي؟

التفتتْ لي وهي أمام الفرن، وجهها كان يشجب عرقًا، قطع من العجين تساقطت عن ذراعها، غطت جلبابها الأسود، نفخت من حرّ الفرن وصهد يوليه الذي لفح وجوهنا السمراء، قالت زافرة:

- لمَ تسألين يا فلحوسة يا فرحة أمك وأبيك؟

أرجوها وأُلح فى طلبي، يدها الممسكة بالبشكور امتدت فى جوف الفرن، التقطت رغيفًا، نفث دخانًا كضباب يوم حار، أجابت بعد تفكير وتردُّد وجدية ملحوظة:

- لا أعرف كثير.. كثير عمري.

قالت ذلك ثم صمتت بينما كانت تتفرس ملامحي الصعيدية السمراء الصغيرة، وضعت البشكور، قرصت العجين، عادت وأكملت هازئة كعادتها.

- لكن أنت يا بنت أمك ناوية تقصريه.

وقتها فقط اعتبرت إجابتها كما لو قالت خمسة آلاف عامًا، كما قال ذلك الرجل فى المعبد، اندفعت من أمامها خارجة من الدار جهة الحجارة المنحوتة، متسائلة فيما بينها كيف استطاعت أن تبقى حية كل ذلك العمر، البنت فتحية - بنت أم الشيخ الطاهر الإمام الذي تفوح منه رائحة العطر أينما ذهب، صاحب الرأي، كبير القرية - كانت تتفاخر بجدتها الكبيرة أم جدتها عن أبيها التي عاشت مئة وعشرين عامًا، قلت لنفسي لا بُد أنها ستفقد عقلها عندما أُخبرها أن جدتي تخطت الخمسة آلاف سنة، وما زالت ترمح كما الخيل فى الدار، عندما كنت أقف أسفل التصويرة بالمعبد قلت لذلك الرجل - كثير الزيارة - مشيرة إليها (تصويرة جدتي) فابتسم باقتضاب، ثم مسح ابتسامته كأنه أخطأ، وأزاحني بيده وواصل شرح ما على الجدار لأولئك الأشخاص ذوي الوجوه المبيضة بياض الشحوب كما الدقيق، عندما عدت ظللت أتأملها، تتحرك بخفة الصبايا بحنايا الدار، لاتكلّ ولا تملّ، يدها التي تشخلل بإسورة فضية ذات رؤوس فرعونية متدلية وحجرة زرقاء كبيرة، جعلتني أتأكد أنها فرعونية وأنها نفسها المرسومة على الجدار، وخالتي تتحنجل وتستدر عطفها، ولا تريد منها سوى تلك الإسورة ذات الرؤوس المتدلية، تقول لها:

عنك يا أمي، استريحي يا أمي، غويشتك مليحة جدًا يا أمي.

ولكن جدتي ذات الخمسة آلاف عام لم تكن لتفرط فيها أبدا مهما قالت لها، متيمة بها؛ تعجبها تلك الرؤوس الفرعونية المجلجلة المتمرجحة فيها، ترفع يدها كثيرًا، تنظر إليها وتهزّها، سمعتها ذات مرة تقول إن تلك الإسورة عزيزة عليها هديته الغالية - تقصد المرحوم جدي - ترسم ابتسامتها الهازئة على شفتيها، لا توليها اهتمامًا، تخاطبها باستخفاف، تقول لها:

- لمّا أموت وتدفنيني ابقي الهفيها يا أم فرحتهم.

دائمًا تناديها أم فرحتهم، غير أنني لم أعرف أن خالتي تُدعى أم فرحتهم، ولكنني أبتسم، أفطن أنها دعابة من دعابات جدتي الكثيرة التي لا تنتهي، تغضب خالتي، يصفرُّ وجهها، تهمُّ بالانصراف، تقول:

- ما عدت أتساير معك بعد الآن فى شيء.

ولكنها لم تزل فى كل مرة تجيء ترمق غويشتها الفضية بأعينها المستديرة السوداء، تبدو كما لو كانت ستنزعها من يدها.

***

- (جدتي لم تمت بعد)

صرخت فيهم عندما نظرت من ثقب باب حجرتها، وتناهى إلى عيني جسدها العاري، وتلك الابتسامة التي لا تفارق شفتيها، سرسوب من الماء كان يتساقط عليها من يد خفية، يطرقع على الجلد كما الكرباج، صوته يسقط فى هوة عميقة من صراخي وعويل ولطم الولايا، لا أسمع سقوطه

على الجسد الهزيل، أكرر صراخي، كأنه حبل نجاة تتشبث به جدتي، لا بد أنها تسمعني، ترجوني أن أوقفهم، أن أصرخ بأعلى ما عندي بحق حبها لي:(هي لم تمت بعد، هي لم تمت بعد)

الأيادي المتشابكة تبعدني عن الباب، تمنعني أن أغيثها، عيني الممسكة عن البكاء سقطت على خالتي التي تغبر وجهها الأسود بالتراب، تهزُّ يدها يمنة ويسرة بالعويل بين المعدِّدات المأجورات، عيناها كانت تزرف دموعًا ساخنة، بدت لامعة سوداء عند اختلاطها بالكحل، أشفقت عليها، أردت أن أقسم أن جدتي لم تمت، أن أخبرها أنها ستفتح الباب الآن وتفاجئهم، تقنعهم أنها فرعونية خالدة لا تموت، غير أنني عندما أطلت النظر إلى خالتي لمحت فى يدها إسورة فضية ذات رؤوس فرعونية متدلية وحَجَرَة زرقاء كبيرة، عندها فقط توقفتُ عن الصراخ ومسحت خدي قطرات هادئة غزيرة ذات ملوحة شديدة، ووقتها فقط نظرتُ بذهول صامتة لباب الحجرة المغلق.



العجائز يموتون فى أكتوبر

للحظات عندما أنظر لذلك المكان أجده أمامي - جدي- عجوز ضخم الجسم أصلع الرأس، تُغضن بشرته التجاعيد، تُنبئ بدخول خريفه، يرتدي البنش وتغطي رأسه الطاقية، لكنني عندما أقترب لا أجد إلا شبكة بيضاء ناصعة ذات غمازات حمراء لامعة، قطرات فاترة ذات طعم مالح كمياه البحيرة تساقطت من عيني عندما أمسكتها، لها رائحة السمك رغم أنها جديدة، رائحتها زفرة كأنها قد تشربّت الحرفة، أو لعلها رائحة يده.

ضحك، سخر مني - جدي - كان ينصب خيوطها، ابتعد ليثبّت طرفها الآخر فى وتد حديدي مغروس فى الرمال، قال بصوت تداعبه نسمات الهواء: (لا يوجد شهور تدعى شهور شؤم، جميعها شهور الله)، قال ذلك وهو يضحك حتى ظهرت أسنانه البنّية المتآكلة، فى داخلي صرت قانعًا أن ذلك الشهر دون شهور السنة هو شهر شؤم، لكنني لم أكن راغبًا فى التحدث عن ذلك، شيء دفعني لأتناسى، كذلك هو، لذلك سكتُّ، كنت أريد أن أقول له: (تهدم البيت فى زلزال أكتوبر العام قبل الماضي ثم ماتت جدتي فى أكتوبر العام الماضي ولا تريد أن تدعوه شؤمًا؟!)، لم أرغب أن أعكر صفوه، ولم أبغ أن أخبره أنني على علم بأن أمه قد توفيت هي الأخرى فى أكتوبر فى سنة من السنوات التي كنت ما زلت فيها صغيرًا، سمعته منذ أسابيع وهو يتحدث عن ذلك، كان الكلام موجهًا لأبي، قال له: (شهر القحط والتقشّف قد أوشك على القدوم) كان يقصد شهر أكتوبر، عرفت عندما أكمل قائلاً:

(أعتقد أن ذلك الشهر شؤم، ماتت فيه جدتك منذ خمسة عشر عامًا ثم ماتت أمك فى نفس الشهر من العام الماضي) بدت نبرته فى الكلام حزينة ذات رتم سوداوي كثيب ككوب الشاي الذي يحمله بين أصابعه المرتعشة، مرات كثيرة قلت له ضاحكًا: (ملعقتان من الشاي فى نصف كوب ماء مغلي بدون سكر، كيف تستطيع أن تشرب مثل هذا الشيء؟!)، كان يردّ ضاحكًا واضعًا سبابته على جانب رأسه: (إن الشاي مزاج)، قال لأبي: (أعتقد أن ذلك الشهر شؤم)، ردّ عليه وقد لاحظ الكآبة البادية على تقاسيم وجهه: (لا يوجد شهور تدعى شهور شؤم، جميعها شهور الله)، ويبدو أنه لم يكن مقتنعًا بما يقول، فقد توقف قليلاً عن الكلام. بدا لي أنه متردد فى حديثه أو أنه يبحث عمّا يقوله، عاد واستطرد قائلاً: (وهل نعترض على مشيئة الله؟!)

***

- ابتسمت وأنا أنظر إليه أراقبه ينسج خيوط شبكته، يشبك أطرافها، قلت لنفسي: (الآن يردد نفس كلام أبي، كان ذلك عندما قال معلقًا على كلامي، لا يوجد شهور تدعى شهور شؤم كلها شهور الله)، أكمل كلامه معي، قال مشيرًا نحو الطيور المحلقة فى سماء البحيرة: (تلك الطيور أتراها؟ إنها قادمة من أبعد منطقة على ظهر البسيطة شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا)، سكت قليلاً ثم أكمل: (جيوش من الطيور المهاجرة لم نسمع عنها قبل الآن تأتي إلى هنا مع مطلع شهر أكتوبر وتبقى حتى تريد هي). تحرك بخفة دلت على احتفاظه ببعض مهارته وهو يسد فتحات الشبكة الكبيرة، استدار برأسه فجأة تجاهي، قال: (لن يقلقها بنادق الرش التي تلعب بها فى الصباح مع ابن حمّاد) تركيزي لم يكن منصبًا على كلامه، بل على تلك الشبكة الجديدة التي يجتهد فى صنعها فى هذا الوقت من العام، فأنا أعلم

أنه لا يملك مالاً وأنه قد استدان ثمنها، لقد كنت مارًا بالصدفة بجوار دار أم ربيعة - جارتنا - وسمعته يحدّث زوجها، يرجوه أن يقرضه مبلغًا من المال، الكل يعلم أن ذلك الرجل هو الوحيد فى القرية الذي يحتمل أن يملك مالاً فى هذا الوقت من العام.

لابد أن ذلك مرجعه لعدم احترافه الصيد؛ بل ربما لا يأكل السمك أيضًا، لا أحد يملك مالاً هنا يحب أن يأكل السمك، لم أسمعه يرجو أحدًا هكذا من قبل، ولكنني سمعته يترجاه كأنه ينتزع منه الفرصة فى أن يرفض، ولكنه ردّ عليه بودّ، دعاه لكوب شاي، قال له: (اطلب ما تريد). فكرة أنه استدان ليشتري طعامًا للبيت سيطرت على عقلي، لكنني استبعدتها، كنت أعلم أن فى البيت بعض المال تمَّ ادخاره للطعام عندما يحلّ شهر أكتوبر، أدركت لما استدان المال عندما رأيته عائد بخامات الشبكة الجديدة التي يصنعها، بدت أمارات الفرح على وجهه كدليل على أنه أعطاه المال، كان يخشى أن يرفض طلبه، لذلك كان يرجوه، يعلم أنه لو رفض طلبه سيقاطعه مثل حمّاد، وسيكون ذلك صعبًا عليه فهو يعامله كابنه، ما زال لم ينس أنه طلب نفس الطلب من حماد منذ سنوات، لم يقرضه شيئًا، كان يعلم أن معه مالاً، قبلها بأيام كان قد باع (عروس البحيرة) أكبر مركب فى البحيرة، وقد حصل منها على مقدار كبير من المال، رغم ذلك رفض أن يقرضه، قال له: (لم يبق من مال المركب شيء، يعلم أنه يكذب، كان أعز أصدقائه رغم فارق السن بينهما. فى وقت آخر كان من الممكن أن يسامحه، أن يحطم ذلك الحاجز الحديدي الذي حط بينهما؛ ولكنه أراد المال ليعالج أمه، لم يكن معه ثمن دوائها، كان يحبها بشدة، يسميها الست المبروكة، من تبقى من الأحبة، ماتت بعد أيام. كان ذلك فى شهر أكتوبر، لم ينس منه ذلك أبدًا. - سألتُه وأنا أنظر لحركة يده السريعة: (لمن هذه الشبكة؟)، نظر

إليَّ بخبث ولم ينطق شيئًا. عندما سألته كنت أعرف، ابتسمت له، رغبت أن أقول له لم يكن هناك داع للاستدانة، أولاد الصيادين لا يحتفلون بأعياد ميلادهم، لم أقلها، تذكرتُ أن عيد ميلادي فى الحادي والثلاثين من أكتوبر، وأنني لم أشعر به فى العامين الماضيين. الآن بعد عامين يريد أن يقول لي كل عام وأنت بخير.

عندما عرجت من شط البحيرة ناحية بنايات الصيادين كنت ما زلت غير بعيد، فى لحظة وجدت نفسي وجهًا لوجه مع ابن حماد، لم أرد أن يرانا جدي معًا، جذبته لنبتعد خلف البنايات، كنت أعلم أنه رآنا، لمحت عينه ترصدنا، لم يكن ليفعل بي شيئًا، لكنني كنت أتفادى مضايقته، كنت أعلم أن جدي أكبر من ذلك، أنه ما كان ليغضب من صبي فى عمري لمجرد أنه ابن حماد؛ ولكنه رغم هذا يذكره بما فعله حمّاد.

لحظات من أيام سالفة تحجرت أمام عينيَّ، لا يمكن إزالتها، ستظل باقية فى الذاكرة، طيور كثيرة حلّقت على مقربة من رأسي كونت شباكًا طائرة ذات مناقير حادة تغسل البحيرة، تذكرت مقولته: (جيوش من الطيور المهاجرة لم نسمع عنها من قبل)، عندما أنصت لم أسمع غير نعيق غربان تعيد صياغة الصمت الجاثم حولي فى البحيرة، تشمّمتُ شبكته الجديدة التي انتهى منها منذ أيام،لم يتمكن أن يهديها له فى الحادي والثلاثين من هذا الشهر كما كان يريد، ما زالت رائحته تفوح منها، عندما ألقيتها فى الماء لم تصطد إلا سميكات نحيفة، رغبة تملكتني فى الصراخ، أو أن أُحدِّث جدي، أن أقول له لم تُبق الطيور لنا غير البساريا الصغيرة)، ولكنني لم أجده، كلماته ما زالت تتردد فى أذني: (لا يوجد شهور تدعى شهور شؤم)، حقيقة واحدة أدركتها تراقصت أمام عيني واضحة، أن العجائز يموتون فى أكتوبر.



الجانب الآخر

الآن فقط لن يحول دون مواجهته شيء، تحذيرات أمه، حكاوي جده، أقاصيص القرية الكثيرة؛ كل ذلك لم يعد يُجد. كثيرًا ما يسمعهم يتحدثون عن الجانب الآخر، غيلان الجانب الآخر، موت أبيه، الآن قرر أن يهب أباه الراحة الأبدية، ينتقم له، التعتيم الضبابي الكثيف الذي يحوطه لن يمنعه عمّا انتواه، ملمس الأشياء لأطرافه يبدو له واضحًا، الجسر الترابي الضيق، حقول القمح الأصفر، براعمها الجافة ما زالت خشنة في يده، خشخشة أوراقها تناغي سمعه مع كل هَبَّة هواء صباحي، الخط الرمادي الأسود الذي اعترض طريقه. الآن بدأت الأضواء تقترب منه، زغللت عينه، عرف أنها هي – الغيلان – ألسنة النار تندفع من عيونها، لم يهابها، وقف بمحاذاة الخط الأسود، أدرك أنه لم يحضر معه شيئًا ليحارب به، أغمض عينيه وصرخ (لست جبانًا.. لست جبانًا.. لست جبانًا).. خفت الصوت واضمحلت الأضواء، شعر بالمهانة عندما لم تعره اهتمامًا.

مرة أخرى رآه يقترب من بعيد، لم يبدُ واضحًا له وسط الضباب ولكنه يقترب، لوح بيده، صرخ مرة أخرى: (لست جبانًا.. لست جبانًا). فوجئ بوجه آدمي لرجل مبتسم يخرج له رأسه من فتحة ضيقة، لوح له بيده مثلما يفعل. المألوف كان الوجه الآدمي، والغريب كانت تلك المركبة الحديدية العملاقة التي يجلس بداخلها.

ذهل عندما أدرك أنه لم يكن هناك غيلان كما اعتقد. بمحاذاة الخط الأسود جلس يتأمل المركبات المارة، بطريق العودة اجتاحته أحاسيس غريبة. لم يكن ذلك الصبي الذي يلعب الاستغماية وكهرب مع الصبية الصغار أمثاله، أو ذلك الصبي الذي يلعب الحجلة مع حميدة!. بداخله شعر بشخص كبير يتنكر على هيئة صبي صغير. الآن هو وحده يعرف أنه لا توجد غيلان على الجانب الآخر تقتل الكبار وتأكل الصغار، والآن سيتصرف كشخص ناضج وسينصرف عندما يشرع صبية القرية في أحاديث الغيلان ككل يوم، وسوف يبتسم لهم ساخرًا وهو يحادثهم قائلاً: (يا لكم من ساذجين؟)، والآن هو وحده يعلم لماذا لم تعد حميدة تلعب الحجلة معهم، وأن الشمس تشرق بيضاء ناصعة من خلف قريتهم - كثيرًا ما كان يتساءل من أين تشرق الشمس؟ ولكنه كان يفاجأ بها تعبر من فوق الأبنية وتتمركز صفراء وسط السماء - وأخيرًا هو وحده فقط يعلم أن الناس الذين يعيشون على الجانب الآخر هم أناس طيبون.

فيما مضى كان يكتفي بالجلوس تحت شجرة الصفصاف المطلة على المجرى المائي العريض خلف داره، يتأمل الجانب الآخر، الغموض الذي يحوطه، يحلم أن يكبر وينتقم لأبيه. في الجزء الثاني من الليل وقت أن تكون القرية تغط في نوم عميق يقفز من النافذة الخلفية على حقل البطاطس يتأمل الصفصافة، براعمها المتدلية التي تداعب سطح الماء على ضوء القمر ترسم له أفكاره الصغيرة، تشاركه ضيقه.

بالأمس فقط لم يعد يحتمل الانتظار أو الصبر. شعر بالملل والإحباط، المليم الذي أعطاه له جده منذ أسبوع ما زال بجيبه، تتحسسه أصابعه، قرَّر أن يركب المعدية. في اجتيازه للمجرى المائي إلى الجهة الأخرى تذكر قول أمه عندما سألها عن الجانب الآخر من النهر، قالت له: (إياك والذهاب

إلى هناك، لا يوجد غير غيلان عملاقة تقتل الكبار وتأكل الصغار ولا تترك منهم إلا بقايا لحم وعظم مهروس).

رغم ذلك كان يشعر بالحيرة عندما تلتقط عيناه فى ساعات النهار أناس يتجولون فى حقولهم عبر المجرى، يزرعون ويقلعون، عندما يسألها عن ذلك تجيبه: (إنهم أناس مثلنا فى النهار ولكنهم غيلان متوحشة فى الليل). لا يلبث أن يصدقها عندما يسمع صبية القرية يتحدثون عمّا يحدث ليلاً فى الجانب الآخر. أحاديث جده المستفيضة أكدت ذلك، سمعه مرة يتحدث عن أطفال ماتوا منذ سنوات، وعن غضب أهل القرية وثورتهم، قال أيضًا: (لم يكن أمامهم غير النبوت والطوب للدفاع عن أنفسهم)، قال: (لقد جعلوها قطعًا صغيرة مهشمة).. لكنه لا يلبس أن يتساءل، إذا كانوا قد قتلوا الغيلان حقًا فلماذا الأطفال مازالوا يموتون إلى الآن؟!

عندما كان يرى أباه يعبُر المعدية إلى الجهة الأخرى كان يتفاخر بذلك بين الصبية، يظل يتأمله وهو يبتعد حتى يصبح نقطة صغيرة مرسومة فى الأفق، يدرك أنه شجاع، يتمنى أن يصبح مثله. فى إحدى تلك المرات لم يعد إلى القرية، دفنوه بعدها بأيام، رأى الدم الذي يخضب كفنه الأبيض، أدرك ما حدث له، قرر أن ينتقم له، أن يواجهها وجهًا لوجه.

انزلاق السلك المعدني الغليظ على البكرة الحديدية للمعدية جعله يحدث حفيفًا حادًا، وانسياب المعدية على الماء أحدث طشطشة هادئة إثر ارتطام جوانبها بالموجات الصغيرة. عندما كان فى الوسط تمكن من كشف الجدران الخلفية لدور القرية، شيء آخر كشفه غير أطلال القرية جعله ينتفض فى مكانه، حميدة ذات الضفائر والشرائط الحمراء كانت تغتسل فى الماء، لكنها كانت عارية تمامًا، الماء الذي لم يصل إلى ركبتيها، وقدمها

المرفوعة على حجر لتغسل ما بين ساقيها وصدرها البارز ذو الانثناءات الحادة جعلها تبدو كتلك المرأة العارية فى الصورة القماش القديمة المعلقة فوق سرير أمه النحاسي. اعتقد أنها ليست حميدة، أن الضباب هيأ له ذلك؛ ولكنه عندما تأمل وجهها المستدير الأبيض كوجه القمر أدرك أنها هي، لم تكن تشعر بالمعدية التي تمر، كانت مشغولة بشيء آخر - جسدها الأبيض الناري - عندما عاد يتفحص جسدها لم يجده نفس الجسد الذي اعتاد أن يقفز معهم فى الماء، الآن فقط أدرك لماذا لم تعد حميدة تلعب معهم.

من الجانب الآخر الأشياء التي اعتاد أن يراها كبيرة تحولت إلى أعواد كبريت وعلب صغيرة؛ بيوت القرية، النخيل، شجرة الصفصاف العملاقة، نافذة داره العريضة.

مليم جده أحدث ضجيجًا عندما أسقطه فى الصندوق الصفيح المعلق، أدرك أن صندوق عم فتح الله المعداوي كان خاليًا، تذكر أنه لا يرى ذلك الرجل إلا قليلاً، دائمًا يجلس فى كوخه الخشبي حول ركية الشاي والشيشة ذات الرائحة الغريبة. الناس بأنفسهم يعبرون، يسقطون الملاليم فى جوف الصندوق ثم يفرغه هو فى المساء.

عندما بدأ الضوء الصباحي الأبيض يضرب أعالي الأشياء بخيوطه الرفيعة، وبدأت نسمات الصباح الهادئة تناغي بشرته كان قد وصل عند النافذة الخلفية للدار - تلك التي يقفز منها دائمًا - فكر أنه كان يحلم حلمًا كبيرًا عندما نظر إلى فراشه؛ ولكنه أيقن أنه لم يكن حلمًا عندما وجد فراشه خاليًا.

في الوقت الذي أغرق الضوء بيوت القرية بخيوطه الذهبية أيقظته أمه، كان يريد أن يحكي لها ولكنه لم يجرؤ، فقط قال لها:

(لقد حلمت أنني ذهبت إلى الجانب الآخر). قاطعته محذرة، قالت نفس ما تقوله له دائمًا منذ موت أبيه:

(إياك والذهاب هناك، لا يوجد غير غيلان عملاقة تقتل الكبار وتأكل الصغار، ولا تترك منهم إلا بقايا لحم وعظم مهروس).

من قبل كانت تأخذه رهبة وخوف عندما تقول له ذلك، الآن رد عليها بثقة أذهلتها، قال لها: (ما هي إلا ماكينات حديدية عملاقة يركبها أشخاص ودودون).

* (استغماية وكهرب هي أسماء لألعاب تعرف بين الصبية الصغار في مصر)



امرأة تشبه أمي

في السنة الخامسة بعد الموت كانت ما زالت تقف في الشرفة بين أصايص الخضرة مبتسمة كأمي، خصلات شعرها الأبيض المصبوغة بدت بعد الصبغة ذو لون بصلي فاتح، وغضون وجهها وثغوره المنقطة بحبات النمش البنية جعلتني أعتقد أنها أمي، لكن؛ لأني أعلم أن أمي ذات الشعر المصبوغ والوجه المعدوس ترقد الآن بابتسامتها تحت التراب؛ فقد أدركت أنها ليست أمي، لسنوات خمس عندما أمرّ من تحت الشرفة أنظر إليها؛ الابتسامة المفاجئة التي تنطبع على شفتيها، النظرة الودودة الحانية التفاتة الوجه؛ كل ذلك يجعلها تبدو وكأنها تعرفني، تجعلني ألتفت خلفي بينما أخطو آخر خطواتي.

أذكر أنني رأيتها قبل ذلك، لم يكن ذلك شكلها، قبل خمسة سنوات نبتت حبات بنية في تربة وجهها وغضون وثغور دميمة وابيضّ شعرُها الأسود وأزهرت على الشفاه ابتسامة - كان ذلك عقب موت أمي - أصدقائي وأقاربي الودودون ذهلوا عندما رأوا تجلُّدي وصبري، لاسيما أنهم يعرفون مدى علاقتي بأمي. عندما يقتربون مني ويشدون على يدي وتتحرك شفاههم بكلام لا أفهمه أو يفهمونه، ويبدو على وجوههم الارتباك وقتها أضحك وأقول لهم: (إن أمي لم تمت بعد). عندما أقول ذلك يردون بأسًى: (نعلم هذا، إنها في قلوبنا أيضًا).

يقولون ذلك وهم يضربون بكفوفهم على صدورهم كأن فى قوة الضربة ما يعادل الصدمة، أعود وأبتسم وأقول لهم: (إني أراها كل يوم). ولكنهم لا يفهمون، يرددون مرة أخرى: (نعلم ذلك، ما زالت صورتها فى عقولنا، وستظل دائمًا أمام عيوننا). لحظتها يغلبني الضحك، أسمعهم يهمسون: (لقد خفّ عقله بعد موتها) ولكنني لا أعلّق، أبتسم وأصمت وأمر تحت الشرفة وأنظر إلى أعلى.

فى السنة السادسة بعد الموت لم تكن بالشرفة للمرة الأولى خلال السنوات الخمس، الرجل ذو المعطف الكاكي قال لي: (المرأة العجوز تلك التي كانت تقف دائمًا فى الشرفة)، سألته: (مالها؟)، أجابني: (لقد ماتت وليس لديها من يدفنها)، عندما كنت أنا الوحيد الذي عرفها على مدى السنوات الخمس، فقد كنت أنا من يجب عليه أن يدفنها. تفحصي الشديد لوجهها جعلني أدرك أنها لم تكن ذات شعر بصلي أبيض، وأن وجهها لا تغطيه الثغور ولا الحبات البنية الدميمة وأنها لم تكن تبتسم. عندئذ بكيت بغزارة وانزويت ببيتي حزينًا. عندما سألني أصدقائي الودودون عن سبب حزني؛ قلت لهم: (لقد ماتت أمي).



سيارة أربعينية شديدة الظلمة

فوق الطوار المبلط على إحدى الكراسي الأسمنتية المثبتة بمحاذاة طريق السيارات كان جالسًا. الوقت عصاري، الشمس أمامه تظهر من شارع رأسي الاتجاه تقاطعي غربي؛ حمراء شفقية؛ كبيرة كما لم تبد من قبل؛ تسقط بهوادة فى جوف الكون غير المرئي والمختفي فيما وراء الأبنية، عيناه الظاهرتان من ثقبي وجهه - بين هالات التجاعيد الكثيفة - تتحرك يمنة ويسرة فى صمت وجهه الكهل متجمد الملامح، كرأس فرعوني حُنط إلا من مقلتيه، ترقب عن كثب حركة السيارات التي تدهس بعنف الطريق الإسفلتي لكلا الاتجاهين، تسجل أصواتها فى الذاكرة ثم لا تلبث أن تختفي، السيارة الأربعينية القديمة ما زال يحفظ صوتها، دائمًا ما كان يسمع أزيزها الناعم، يعتقد أنها تناجيه، يقول: إن كل سيارة لها بصمة كبصمة اليد أحادية النوع تختلف عن الأخرى، ذبذبات نفيرها؛ أزيز موتورها فى سرعته وبطئه، فى دورانه وتوقفه؛ فى إضرابه عن الحركة عندما يشعر بالتعب؛ السيارة الكاديلاك لامعة القوام السوداء كظلمة ليلة ليس بها قمر، دائمًا ما كان يفتخر بها وسط أجواء القهوة التي يجلس عليها الضبابية كذاكرته، يقولون له: (لا تحدثنا عن سيارتك الكاديلاك السوداء التي كنت تقودها أو عن مالكها الباشا، زمن الباشاوات قد ولى يا باشا).

زيه الرمادي المرصَّع بأزرار ذهبية تعكس بريق السيارة الأربعينية، والكاب فوق رأسه كثيرًا ما كان يزهو بهما، يقول (أنا سائق الباشا الخصوصي)، وزوجته تنفض عن كتفه غبارًا غير موجود ككل يوم وتودعه فى طريقه للخروج، وتنظر من النافذة على الكاديلاك التي تسد شارعهم الضيق، جارتها كم يحسنها على البذلة ذات الأزرار؛ بينما هي لا تكف عن التعالي ورفع حاجبيها، والنظر من فوق صخرة مرمرية مزركشة حين تخاطبهم، تقول لهم: (زوجي رجل مهم، إنه سائق الباشا الخصوصي، بدونه تتوقف مصالح الباشا، لا يستطيع الحركة بدونه).

حين رأته أول مرة مرتديًا بدلته الرمادية يهبط من السيارة الفخمة، انطلقت منها الزغاريد كمدافع رمضان، ورشته ببلورات متحجرة بيضاء صغيرة، بدت له أنها حبات من ملح، قال لها: (إن الباشا الكبير مسرور مني بشدة ولا يستخدم إلا سيارته الكاديلاك السوداء دون السيارات الأخرى التي يمتلكها، تعجبه قيادتي). ذات ليلة كان مبتسمًا تعلو وجهه البشاشة، حدثها قائلاً: (سيعمنا الخير الكثير، قال لي الباشا اليوم عندما كان مسترخيًا على الكرسي الخلفي للسيارة: أنت سائق ممتاز يا ولد يا فتحي، لذلك سأفكر في زيادة راتبك). قالها لها بطريقة غريبة بدت كعنجهية نطق الباشا لكلماته، ثم انفتحا معًا فى الضحك، خلع كابَهُ الرمادي وألقاه على كنبة الأنتريه الأسيوطي المتهالكة ذات الكسوة المرقعة بأقمشة مشابهة.

وجهه المتجمد منذ زمن بعيد تحرك أخيرًا، حركته كانت عصبية، كان ذلك عندما لمعت عيناه ببريق سيارة قديمة انطفأ رونقها الفبريكي، وضجت أذنه بأزيز موتور رسم الزمن خطوطًا قاسية عليه، ما زال يذكرها بشكلها الأسطوري النادر ورقمها البسيط المنحوت على جدار عقله الداخلي، عندما تمر أمامه كل يوم فى هذا الوقت المستقطع من العصاري.

تذكر آخر مرة قابل فيها الباشا، دموعه التي تساقطت منه ولم يستطع أن يمنعها دفعت الباشا لأن يخرج من محفظته الجلدية المثلثة ورقة من فئة الجنيه ويعطيها له، قال له: (خذ يا فتحي تدبر أمورك بها). حاول أن يرفضها بإباء؛ ولكنه دسها في جيبه وربت على كتفه، عندما دخل على زوجته أخرج لها الورقة فئة الجنيه، يده المرتعشة ووجهه المتجهم جمَّد الابتسامة على شفتيها، ومسح غمازات وجهها النضرة، لم ينطق سوى بضع كلمات، انزوى بعدها في ركن الكنبة الأسيوطي، قال لها: (باع الباشا كل شيء وسافر إلى الخارج).



عيناه بادية الصغر لم تنصرف عن الكاديلاك وهي تبتعد تاركة وراءها ذلك الضجيج المزعج، تابعها حتى صارت نقطة سوداء متحركة تسير على الحد الأقصى للمستوى الأفقي لبصره، تاهت بعدها في غيمة متقاطعة، اختفت تمامًا مع انزواء الضوء الأرجواني لوقت الغروب وحلول الظلام، نسمات خريفية باردة قليلاً هبَّت عليه، اضطرته للانكماش في مكانه على الكرسي الأسمنتي العمومي، بدا في جلسته أنه تخطى الثمانين خريفًا، قام بتؤدة تناسبت مع سنِّه، يداه المتغضنتان اختبأتا في جوف جاكتة رمادية متهدلة قديمة ذات أزرار صفراء مطوَّسة، عندما تحرك بدا أنه ارتداها على عجل فوق جلبابه البيتي المقلم بخطوط طولية متسخة، سرت منه التفاتة حزينة نحو الأفق حيث اختفت النقطة السوداء، ما لبث أن اتخذ طريقه المعاكس متجهًا إلى بيته.





أقنعة

على خشبة المسرح دار دورة كاملة متكررة سريعة دلت على لياقته، نزع قناعًا مطاطيًا عن وجهه يمثّل وجه ملاك، ظهر من أسفله وجه شيطان مخيف ففزع المتفرجون منه، لكنه ما لبث أن قفز قفزة ثلاثية مبهرة ثبت بعدها على خشبة المسرح ونزع قناع الشيطان، وقذفه بين الجمهور، فبدا الوجه المزركش للبلياتشو بابتسامته البلهاء. ضج المسرح بالضحكات الصاخبة، أخرج بيضة من فمه وأُخرتين من أذنه، ارتفع صياح الأطفال وتهليلهم فرحًا وسعادة، . قلب رأس البلياتشو كأنه انتزعه من رقبته، وعكس وضعها، فبدت عيناه إلى أسفل وفمه إلى أعلى، الأطفال الذين هللوا فرحًا منذ قليل صرخوا رعبًا عندما انتزع فجأة قناع البلياتشو المضحك ليظهر من ورائه وحش لم ير مثله من قبل. عندما حان موعد انتهاء العرض نزع قناعه المفزع؛ ليبدو وجهُه البشوش المشوب بالابتسامة الهادئة، حيا الجمهور وانصرف.

بعد العرض عندما أسرعت حبيبته تُقبله أحسّت في لعابها طعم المطاط فأنشبت أظافرها في وجهه، سقط عنه قناع، نظرت إليه مذهولة، اندفعت تمزق وجهه بأظفارها بحثًا عن الوجه الحقيقي للرجل الذي تحبه، تساقطت الأقنعة تلو الأخرى، لكنها توقفت مكانها وتسمرت عندما لم تجد شيئًا وراء الأقنعة.



القزم

رجل بطول المتر يرتدي الباروكة والحلق، ويضع المساحيق الحمراء والزرقاء وبودرة الوجه وفستان الفرح النايلون، رغم ذلك احتفظ بشنبه يتأرجح كثيفًا على جانبي وجهه. فقط عندما ينظر لنفسه فى المرآة هكذا يحتقرها، ولكنه يندفع كل يوم لفعل ذلك، غير أنه على يقين أن ذلك ليس شعوره وحده. لشهور كان يقف أمام المرآة بهذه الصورة. فى المساء يقنع نفسه أنه لا يجب أن يفعل مهما كلفه ذلك، ولكنهم فى كل مرة يعطونه الإشارة؛ فينطلق لينفذ دوره كما هو مطلوب منه. مَن حوله حتى الذين يرونه كل يوم يندفعون فى الضحك وإلقاء النكات والعبارات الساخرة، إلا أنه لم يُظهر غضبه لهم أبدًا، يتمادى فى الضحك معهم، فى داخله يتحيّن الفرصة المناسبة لينتقم ويسترد نفسه من تحت الفستان النايلون والطرحة.

فى كل مرة يقول: (هذه المرة سأنهي كل شيء، سأخلع الطرحة والحلق والفستان على خشبة المسرح وأنصرف). سيفقده ذلك عمله، غير أن الأمر يستحق، ولكنه يعود ويتراجع على خشبة المسرح، يجلس بجانب العريس ويهز باروكته ويبرم شنبه ويحرك نهديه الصناعيتين بكفه كما هو مطلوب منه فى النص، ولحظات أخرى وينتهي دوره دون أن ينفّذ ما فى عقله.

ما زال واقفًا أمام المرآة يتأمل مظهره الكريه، لم يعد يستطيع أن يفعل ذلك، أن يُحوِّل لمسخ مضحك ككل يوم، قبل ذلك لم تواتيه الشجاعة الكافية، اليوم يشعر بالعزيمة والإصرار والرغبة فى إنهاء الأمر بالطريقة التي دبّرها، سينتقم منهم جميعًا ولو ليوم واحد، يجعلهم يصرخون من الغيظ، بعد قليل سيستدعونه وهم يضحكون كعادتهم، وسيبدءون فى إلقاء النكات الساخرة وهم يترنحون من الضحك، الليلة سيوقف الضحك ويغلق الستار.



لحظات وكان يتقدم متجهًا صوب خشبة المسرح، على المسرح لم يستطع غير أن يجلس بجانب العريس، ويهز باروكته ويبرم شنبه ويحرك نهديه الصناعيتين بصورة مضحكة.



المرآة

فى اللحظة التي تغلق فيها عينها وتفتحها تعتقد أنها سترى شيئا آخر، تحاول أن تشعر بطعم أحمر الشفاه على شفتيها،. رائحة مساحيق التجميل، مجفف الشعر، تفكر كثيرًا فى شكلها، تتمنى أن تجد نفسها فتاة ناضجة تأسر قلوب الشباب، وتغزل بجمالها عقولهم وتثير عداء الفتيات الأخريات اللائي سيتمنين أن يكُنَّ مثلها، تفتح عينيها وتتأمل نفسها فى المرآة، تتوقع أن ترى ما تفكر فيه، تنزوي الابتسامة المرتسمة على شفتيها، لا ترى إلا طفلة ضئيلة نحيفة ترتدي الشورت والبلوزة الطفولية لرأس ميكي ماوس وضفائر طويلة قبيحة، وكرة وعروسة بلاستيكية بين يديها، تضيق بالمرآة، تحطمها وتدفن أشلاءها. لسنوات طويلة اعتادت على ارتداء ثيابها وهندمتها وتنميقها بدون مرآة. تعلم أنها عندما ستنظر إليها لن تجد إلا تلك الطفلة ذات الكرة والضفائر والعروسة، فستان أمها الأحمر الجديد أعجبها، سيجعلها كأمها، كملكة متوجة أو أميرة مدللة، تغافلها وتذهب لغرفتها وترتديه، تحدث نفسها:

(فستان يليق بامرأة ناضجة وليس طفلة ترتدي الشورت).

تدور وتلف حول نفسها، تنظر لصورة كبيرة معلقة على الحائط فى الغرفة، صورة لفتاة ناضجة مبهرة، تتمنى أن يكون لها نفس شعرها الذهبي، أو عيناها الواسعتان أو وجهها المستدير كوجه القمر البدر، أو ذلك

القوام المشوق الساحر. تنتبه إلى أن الصورة تتحرك، تماثلها فى الحركة كخيالها، تدرك أنها تنظر لمرآة كبيرة مثبتة على الحائط.



امرأة تأكل وتنام وتعيش عارية

عندما اقتربت منه وهو نائم تحمل بيدها مقصًا، لم تكن تريد إلا أن تقصَّرَ شعر لحيته وتقلم أظافره الحادة. دائمًا يغيب أسابيع ثم يعود مترنحًا من السكر؛ لكنه لا يلبث أن يستيقظ ويتحول لوحش ضاري يمزق ثيابها حتى تصير عارية، ويسكن بثقله فوق صدرها، لا يأبه لرائحة عرقه الكريهة

أو لحيته المنفرة التي تعكر أنفاسها، أو تلك الجروح الرفيعة التي تتركها أظفاره على جسدها. عندما فكرت ذات مرة أن تمنعه من تمزيق ثيابها وضعت يدها بحركة عفوية على مكان الكدمة القديمة أسفل عينها، صارت بعدها تجلس وتأكل وتنام وتنتظره عارية، حيث فقدت كل ثيابها. اقتربت يدها المرتعشة بالمقص إلى لحيته، أوشكت أن تقصها ولكنها انزلقت فجأة إلى صدره توغره بطعنات متلاحقة. فى اللحظة التي رأت فيها الدماء الحمراء تتدفق بغزارة من صدره اندفعت فى البكاء وضمته إليها، فقد أدركت أن أظفاره المسنونة لن تمزق لحمها مرة أخرى، وأن رائحته الكريهة لن تتسلل إلى أنفها بعد ذلك.



البحث عن مساحة فراغ

المكان / الحافة العليا لمدينة القاهرة، بالتحديد قلب حي القلعة، البيوت صناديق وصفائح وعلب كبريت أسمنتية، فوق إحدى الأسطح المتزاحمة كان يتأمل السماء يبحث عن مساحة فراغ، الأسطح والأبنية المكدسة التي تحوطه تشعره بالاختناق والرغبة فى الصراخ، لا يوجد مساحة فراغ. فى تأمله للنجوم اكتشف تلك المساحة، وجدها بذلك المستطيل الأسود الممتلئ بالنجوم والذي يعلو وجهه. ابتسم لنفسه، أخذ من جانبه مسطرة خشبية بطول المتر وقلمًا من الرصاص ومنقلة ومثلثًا، بدأ يرسم محاورًا أفقية وأخرى رأسية، ويحدد الزوايا بين النجوم، جعل مركزها الدب القطبي، كلما أخطأ فى التصميم أعاده مرة أخرى حتى انتهى منه. بيت صغير هادئ يتزوج فيه وينجب أولادًا فى البعد المتناهي هناك عند نجم الشمال، لكنه ما إن انتهى حتى سمع صوتًا يصيح من أحد الأسطح الملاصقة، سمعه يقول: (هذا المكان قد سبق حجزه).



رنين الأجراس

- (عندما يتوقف رنين الأجراس).

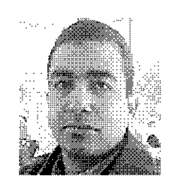
هكذا أجبت أمي عندما سألتني متى ستفكر فى الزواج؟.

الأجراس التي علقتها فى إفريز الشرفة يتّحد تاريخها مع التاريخ الذي تزوجتْ فيه من أحببتها؛ شخصًا آخر. فى نفسي قررت ألاَّ أتزوج امرأة أخرى إلا إذا توقفت الأجراس، لكنني كنت على يقين أن الأجراس لن تتوقف، إذ يحركها الهواء.

غير أنها ذهبت مسرعة إلى الشرفة وانتزعت الأجراس فأخرستها، قالت: (لقد توقفت الأجراس)، سألتها: (هل عندك عروس؟)

***

المؤلف في سطور



- قاص مصري من مدينة شبين الكوم.
- حاصل على جائزة الدكتورة سعاد الصباح فى القصة القصيرة لعام ١٩٩٩م، عن المجموعة القصصية (الديوك الرومية لا تطير)
- له قيد النشر مجموعتان قصصيتان: (معركة مع فرغل)، (أشياء عادية)
- نشرت أعماله القصصية ومقالاته فى العديد من الصحف والمجلات العربية.
- البريد الإلكتروني:

Kashkoush0123@hotmail.com

الفهرس


شمس
للنشر والتوزيع
(+٢)٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤ (+٢) ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥
www.shams-group.net